أحمد البياتي

نبتة إبليس

الكتـــــــــاب: نبتة إبليس

المــــؤلـــــف: أحمد البياتي

الغـــــــــلاف:

المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة

رقــــم الإيـــداع: 9319/ 2014

الترقيــم الدولــي: 2 - 75 - 6447 - 977 - 978

الإخـــراج الفنـــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة

هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

أحمد البياتي

نبتـة إبليـس

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

نبتةُ إبليس

دراسةٌ توضِّح طريقة تفكير الجماعات التكفيرية المسلَّحة
من خلال عرض وتحليل كتاب التكفير الأكثر شهرةً

"ملَّة إبراهيم"

تعقبهُ دراسةٌ لملَّةِ الأنبياءِ وآيات القتال في القرآن الكريم

تنويه هام

إن مؤسسة إبداع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن رأي مؤلفه

الإهـــداء

إلى الطِّيبةِ في أحلى تعابيرها

إلى العشق في أرقى تجلِّياته

إلى مَن لم يستطع الموتُ أن يبعدني عنه أو يبعده عنِّي

إلى أستاذٍ جليلٍ... والدي الحبيب

تحذيـــر

الكتاب يطرح آيـات قرآنية ذات مدلـولات لم تـألـف سماعها، الكـاتـب لا يـدعـوك للاقتناع بهذه المدلولات أو تبنيها وإنما يدعوك للتفكر بها. كما أنّ هذا الكتاب غير مخصص للمتعصب بالاتجاه الديني أو بالاتجاه المعاكس للدين.

المقدَّمــة

يقفُ أغلبية المسلمين اليوم في منتصف الطريق، بين مُتطرِّفٍ مُجرم يقتل الناس باسم الإسلام ومتعصِّبٍ أعمى يرى أنَّ المتطرِّف يمثل الإسلام الحقيقي أو كما عبَّر أحدهم (داعش والقاعدة أكثر إسلاميَّةً من كل المسلمين لأنَّهم يؤمنون بالقرآن والسُّنة أجمعها وليس منتقاها)، وبسبب ذلك نجد أعدادًا لا يُستهان بها من شباب المسلمين وقعوا في حبال إبليس، إمَّا مُتطرِّفًا أو مُتعصِّبًا _ إلَّا مَن رحم ربي _ وممَّا يُثير الاستغراب أنَّه في خضمِّ هذا الصِّراع العالميِّ نجد أنَّ أغلبيَّة المسلمينَ منشغلونَ بصراعاتٍ جانبيَّةٍ لا قيمةَ لها، أو صامتون غيرُ مبالين بما

يحدث من حولهم من إرهاب ينخر في جسد المسلمين ويُهدِّد مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وأوطانهم وحتى مستقبل إسلامهم، فتراهم لا يملكون الردود الصارمة على من يحاول أن يجعل دين الله دين ذبح وقتل؛ ولذا جاء هذا الكتاب ليوفِّر المعلومات الضرورية التي يجب على كل مسلم ومهتمٍّ بالإرهاب معرفتها ليوضِّح للناس جميعًا أصلَ الخللِ وأساسَهُ ليتسنّى لهم الوقوفُ في وجه بحور الدم التي تجري في الكثير من البلدان بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في حروبٍ جانبيَّةٍ لا نفع منها. كما أنَّ هذا الكتاب ضروريٌّ لكلِّ أبٍ مسلمٍ حريصٍ على أولاده ولا يريد لهم أن يقعوا في مصائد إبليس.

يستعرضُ الكتابُ، في رحلةٍ قرآنيَّةٍ، آيات القرآن الخاصَّة بالجهادِ والقتالِ والتعاملِ مع المُخالفين دينيًا وسياسيًا، ومذهبيًا، بهدف توضيح مبادئ الإسلام للشباب المسلمين، مما يساهم في إبعادهم عن خداع المتطرِّفين. وكذلك بهدف توضيح هذه المبادئ لغير المسلمين ليعرفوا الفرق بين المسلم والمتطرِّفِ. ولأجل تحقيق هذا الهدف تمَّت مناقشة أحد أهم كتب ما يُسمّى بالسَّلفيَّة الجهاديَّة وهو كتاب «ملَّة إبراهيم» لمؤلفه أبي محمَّد المقدسي. تم اختيار هذا الكتاب وهو

نموذج يمثل الفكر التكفيري بشكل عام (طبعة عام ٢٠١٠ المنتشرة في مواقع السَّلفيَّةِ الجهاديَّةِ) من دون غيره؛ لأنَّ هذا الكتاب، وكمَّا عبَّر المؤلف نفسه عن كتابه مفتخرًا (لا تجد تنظيمًا مسلَّحًا إلَّا ووُجِدَ عنده هذا الكتاب)، كذلك، صرَّحَ مراسل قناة العربية (الذي تم اعتقاله من قبل الجيش الأمريكي) أنَّ المتطرِّفين في معسكر «بوكا» في البصرة يتداولون هذا الكتاب أيَّام الاحتلال الأمريكي للعراق. فأفكار هذا الكتاب تمثِّل «نبتة إبليس» في أمَّة محمَّد وهو مسئول وبشكلٍ مباشرٍ عن دماء الآلاف من مسلمين ضحايا ومغررٍ بهم. ولذا، فإنَّ من واجب المسلمين اليوم فضحَ هذا الفكر، حفاظًا على الأمَّة وسمعتها وأرواح أبنائها، ووجب قلع هذه الأفكار من فهمنا لنصوص مرجع المسلمين الأكبر، ألا وهو القرآن الكريم..

اليوم تعيشُ الأمة والشعوب تحدِّيًا كبيرًا، لذا عليهم الوقوف بجديَّةٍ لتبيان خروج المتطرِّفين عن الإسلام وتوضيح تناقض عقائدهم مع أبسط مبادئه والتضييق عليهم وحصرهم في الأرض بما تلطَّخت أيديهم بدماء الناس حتى يفيئوا إلى رشدهم ويقتصُّ منهم بالحق، «وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فبالرغم من إيماننا بأنّه

لا قصاصَ على الفكر وإنْ اختلفنا معه، ما دام ضمن الإطار الفكريِّ المعرفيِّ، ولكن عندما يؤدي الفكر إلى قتل الأبرياء والإفساد في الأرض، فيجب محاربته بكل الطرق المتاحة ومنها الطريقة التي اتبعها هذا الكتاب وهو محاربة التطرُّف بالفكر، والجهاد ضده بالقلم فلهذه الطريقة دور كبير في القضاء على التطرُّف وتحجيمهِ لا تقلُّ عن دور الجيوش والاستخبارات.

هذا الكتاب لا يدعي أنَّه يحمل الفكر الإسلامي الصحيح الذي يضمن لصاحبه الجنة – للأسف – وكما أنَّه لا يدعي أنَّ مَن يخالفه مخطئٌ أو ضالٌّ، هذا الكتاب يستمدُّ فكره من القرآن الكريم الذي يوضِّحُ أنَّ الحكم لله ولا وكالة لأحد من الله ليحكم على الآخرين. هذا الكتاب يدعي ـ وبكل فخر ـ أنَّه يمثِّل وجهة النظر الأقرب للإسلام نتيجة اعتماده على نصوص القرآن «المرجع الأكبر لدى كل المسلمين»، فأمام أحكامه تسقط جميع الأحكام والأقوال. وسيعرض الكتاب الحقائق المستقاة من القرآن الكريم من جهة، ومن كتب التكفير من جهة أخرى، أمام القارئ الكريم وله أنْ يتبنّى ما يراه مناسبًا.

{ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ

ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ } (الشورى: ٧-١٠).

(١-١) كتابُ «ملَّةِ إبراهيم»، عمّ يتحدث؟

يستعرض كتابُ ملَّةِ إبراهيم لكاتبه أبي محمد عاصم المقدسي - كما يدَّعي - معالمَ الطَّريقةِ الإبراهيميَّة في التعامل مع المخالفِ فكريًّا، ومن ثمَّ يدعو شباب المسلمين إلى تطبيق هذه المعالم مع المخالفين، لوجود أمرٍ قرانيٍّ صريحٍ لرسولِ الإسلام والأمَّةِ من بعده، باتباعِ ملَّةِ إبراهيم في عدَّةِ مواقع كما في سورة النحل { ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ } (١٢٣).

وبغضِّ النظر عن الفهم الخاطئ لمعالم الطريقة الإبراهيميَّة في القرآن، فإنَّ كاتبَ «ملَّةِ إبراهيم» يُحاول أنْ يُطبِّقَ فهمَهُ الخاطئَ على المُسلمينَ

وغير المُسلمينَ وإنْ اختلفوا معه في أمورٍ بعيدةٍ عن الدِّين كالنظرة السِّياسيَّةِ والأنظمةِ الحاكمةِ والدُّستور، ويُشدِّدُ في تكفيرِ المُسلمين إنْ اختلفوا معهُ في طريقة التعامل مع الديانات الأخرى، أو في أحد فروع الإسلام؛ فهو يجعل الجميع تحت حكم التكفير، وهذا بالطبع مخالف لمنهج سيدنا إبراهيم وطريقته التي كانت طريقًا لمعرفة الله والدعوة إليهِ؛ فلم ينقل لنا القرآن الكريم أنَّهُ انتقد السُّلطان وطريقة حكمهِ والقوانين التي تُنظِّم حياة الناس إلَّا فيما يخصُّ اعتقاد القوم واعتقاد الملك نفسه، فكان النمرود في نظر سيِّدنا إبراهيم إنسانًا عاديًّا يحاول جاهدًا أن يبيِّنَ له السَّبيل الصَّحيح، فلمَّا امتنع، بالرغم من حرصِ سيدنا إبراهيم وجهدهِ، تركهُ وهاجر إلى بلادٍ أخرى، ونتيجةً لمنهج المقدسي أصبح الناسُ بين كفَّتين فإمَّا أتباعَ فهمهِ لملَّةِ إبراهيم الدينية والسياسية، بما فيها من عيوبٍ ومصائب، وإمَّا أنْ يقعوا تحت مطرقة التكفير بغضِّ النظر عن دينهم ومذهبهم وتوجُّهاتهم السِّياسيَّة.

اعتمد الكاتب أبو محمد عاصم المقدسي على بعض الآيات في توضيح ما أسماه: ملَّة إبراهيم، وترك البقيَّة. حتى إنَّه في معرض ردِّهِ على مَن انتقده اجتزأ الآيات بما يوافق هواه؛ لأنَّه إنْ أكملها فإنَّ

ذلك ينسف فهمَهُ الخاطئ نسفًا، وعلى سبيل المثال اجتزأ من سورة الممتحنة مُعتمدًا على فهمهِ، إذ يرى في قوله تعالى: {**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...**} ﴿٤﴾ إنَّه على المسلمين – طبقًا لهذه الآية الكريمة – أنْ يُعادوا ويبغِضُوا مَن لا يؤمن بعقيدتهم. و لم يكمل بقية الآية متعمدًا. ولنقرأ تكملة الآية: {**إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**}، وكما هو واضح فإنَّ العداوة والبغضاء المقصودة في القرآن لم تمنع إبراهيم من أن يستغفر لأبيه (أو عمِّه كما يذهب بعض المسلمين)، وهذا يعني أنَّه لم يقاتلهم ولم يُفجّرهم وإنَّما استغفر لهم. وسنتناول تعامل إبراهيم مع من لم يتبعه من قومه، ومع عمِّه، عندما تبيَّن له كفره لاحقًا بتفصيل أكثر. و بالإضافة إلى أسلوب قطع الآيات واجتزائها من سياقها، نجد مؤلف كتاب «ملّة إبراهيم» يعمد إلى تفسير كتاب الله بما تهوى نفسه فمثلاً في قوله تعالى: (**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ**) ﴿هود:٧٤﴾ حيث فسَّر

مجادلة إبراهيم للملائكة في هذه الآية بأنها كانت بخصوص طلب الرحمة لسيدنا لوط خاصة، وليس لقومه عامة. وقد جاء تفسيره هذا ملائمًا لهواه ونظرته التكفيرية للآخرين؛ فتراه لا يقبل بأنَّ الآية توضِّح أنَّ إبراهيم كان في قلبه رأفةٌ لقوم لوط، لأن هذه الرحمة بالنتيجة تؤكِّد فساد منهجه ودعوته التكفيرية وبالطبع فإنَّ تفسيره هذا يخالف سياق الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد أنَّ مجادلة إبراهيم كانت بخصوص قوم لوط وليس لأجل سيدنا لوط (**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**) ﴿هود: ٧٤-٧٦﴾ وسياق الآيات واضح لكل مسلم عاقل يفهم قليلاً من العربية، إذ إنَّ جواب الملائكة واضح بأنَّ العذاب غير مردود، وكلنا نعرف أن العذاب مخصوص بالظالمين من قوم لوط وليس بسيدنا لوط، وبالتالي فالمناقشة هي بخصوص قوم لوط، ولكن يأبى المتشددون إلَّا اتباع الهوى والشيطان، علمًا أنَّه ولضعف حجَّته حاول القول: إنَّه وإن كان جادلهم في قوم لوط فهذا دليلٌ على حرص إبراهيم على هدايتهم قبل إهلاكهم وهذه الكلمات الست، وحدها كافية لهدم مبادئ كتاب

«ملَّة إبراهيم» الشَّيطاني من أساسه لأنَّه من المفترض، وبما أنَّه يتبع ملَّة إبراهيم، أن يكون حريصًا على هداية المشركين الذين يأتون الفواحش كقوم لوط وليس قتلهم. ويا ليت أنَّه توقَّف عند هذا الحد، ولكنه تجاوز الأمر إلى تكفير المسلمين الذين لا يأتون الفواحش لأجل أمورٍ دينيَّةٍ لا ترتقي إلى أصولِ الدِّينِ، أو لأجل أمورٍ سياسيَّةٍ وحكوميَّةٍ لا دخل لها بالدين. وكنتيجة حتمية لهذا الكتاب وغيره من كتب التكفير، توسَّع المتشددون في تكفير الناس حتى كفَّروا كلَّ مَن يُخالفهم في الدين، وكفَّروا كلَّ مَن يُخالفهم مذهبهم من نفس الدين، وكفَّروا كلَّ مَن يُخالفهم في فرعٍ من فروع المذهب، وإنْ كان من المذهب والدين نفسه، وكفَّروا كلَّ مَن يُخالفهم في النظرة إلى الحاكم وإن كان من الدين والمذهب نفسه، وكفَّروا كلَّ مَن يُخالفهم في النظرة إلى النِّظام السِّياسيِّ والدستور وإنْ كان من الدين والمذهب نفسه، وهكذا أصبح معظم الناس كافرينَ مُستحقِّين للقتل في نظر المتشددين.

(١-٢) جذور كتاب «ملة إبراهيم»:

الكاتب أبو محمَّد المقدسي هو عاصم طاهر البرقاوي أو كما يُلقَّب بـأبي محمد المقدسي، أردني من أصل فلسطيني ولد عام ١٩٥٩. اشتهر بسبب نشره كتابًا يُكفِّرُ الدولةَ السُّعوديَّة، واعتُبِرَ أستاذًا لأبي مصعب الزرقاوي عندما جمعهما السجن. لم يعتمد المقدسي في فكرة كتابه الأساسيَّةِ على القرآن أو الصحابة أو التابعين، وإنَّما اعتمد على أناس عاشوا في فتراتٍ متأخرةٍ لا تتجاوز المائتي سنة السابقة لهذا الكتاب، الذي كُتِبَ في ثمانينات القرن الماضي، وهؤلاء بغالبيتهم غير معروفين، وإنْ كانوا معروفين فهم معروفون للمتطرِّفين والتكفيريين،

وتجمعُهم المودة المذكورة في قوله تعالى: (**وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ**) ﴿العنكبوت:٢٥﴾، وأثارت انتباهي عبارةٌ كتبها المقدسي وهو ينقل عن شيوخه في الصفحة الثامنة والخمسين من كتابه إذ قال ما نصُّه: (هو كلامٌ خطيرٌ، أعلمُ علمَ اليقين بأنَّه لو كان من كلامنا وليس من كلام هؤلاء الأئمة الأعلام لقيل: خوارج وتكفير).

وأنا أجيبه: إنَّ كلامك بالتأكيد هو كلام خوارج وتكفير، لأنه لا يوافق كلام الله ورسوله، أمَّا مَن نقلتَ عنهم ممَّن تُسمِّيهم الأئمة الأعلام، فلم أطَّلع على مُجمل كتبهم وإنْ كانت كتبُهم تُخالفُ الكتابَ والسُنَّةَ، فهي كتبُ خوارج وتكفير كانوا مَن كانوا، فلا عصمةَ في هذا الدِّين إلَّا للقرآن الكريم والصَّحيحِ من سُنَّةِ رسولِ اللهِ التي لا تخالف القرآن المحفوظ بوعدِ الله، وبخلاف ذلك سنكون كمَن اتخذوا رهبانهم وكهنتهم أربابًا مِن دون الله، وهذا هو حال كلِّ مَن يقبلُ الكلام بالرغم من اعتقاده أنَّه كلامُ خوارج وتكفير، لا لشيء إلا لأنه صدر ممَّن يُسمِّيهم -أو يعتقدهم- الأئمة الأعلام. وكما هو معلوم، فإنَّ الله لم يأمرنا باتباع كلام من قال

عنهم المقدسي أئمةً أعلامًا، قال تعالى: (**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**). ﴿آل عمران: ٨٠﴾

ومن عجيب أمر هذا الشَّخص أَنَّهُ يقول في الصفحة ٦١ من كتابه: (إنَّنا مكلَّفون في معاملاتنا وأحكامنا في الدنيا بالظاهر دون الباطن) وهذا كلام جميل، ولكن عند التطبيق هو يكفِّر أمة لا إله إلَّا الله، ومعلوم أنَّ التكفيرَ يستهدفُ الإيمان، والإيمان يكمنُ في بواطن النفس وليس في ظواهرها، وهو نفسه يقول في صفحة ٦٢ من كتابه: (فمن أين لنا أن نعلم بعد انقطاع الوحي صدقَ سرائرهم وبواطنهم ومَن يزكيهم ويشهد لنا بعد رسول الله بذلك؟)، فالمقدسي يقرر إنَّنا لا يمكن أن نطَّلع على سرائر الناس لنعرف مَن المؤمنُ حقًا ومَن الكافرُ حقًا. وهذا اعترافٌ صريحٌ منه بأنَّه يكفر على الهوى، واتباعًا لخطوات الشيطان، ولأسباب سخيفة مثل، كونهم موظَّفين في الدَّولة أو يؤمنون بالدساتير والقوانين أو لهم رأيٌ شرعيٌّ مُخالفٌ لرأيه المتطرِّف. وهو هنا يضرب القرآن الكريم وملَّة إبراهيم وملَّة الأنبياء جميعًا عرض الحائط، وذلك لأَنَّهُ يقدِّمُ سوءَ الظن ويحكم على الناس بالكفر وهو يعترف بأنْ لا سبيلَ إلى معرفة دواخلهم ومقدار إيمانهم الحقيقي، وكلنا سمعنا عن رسول

الله أَنَّهُ قال لِمَن قتلَ مشركًا في ساحة القتال لأَنَّه ظنَّ أنَّ المشرك قال لا إله إلَّا الله كذبًا: «هلَّا شقَقْتَ عن قلبه؟» وهذه سُنَّةٌ واضحةٌ عن رسول الله توضِّحُ أنَّه لا يمكن قتلُ الآخرين بالظَّنِّ والشبهةِ وهم يعلنون الإسلام، وإنْ كان إسلامهم مجرَّد لقلقةِ لسانٍ. ولكن – كما هو واضح – فإنَّ خوارجَ العصر يُكفِّرونَ المسلمينَ على الشُّبهةِ والظَّاهر، إذ يقول المقدسي في كتابه في صفحة ٦٢: (لأجل ذلك كان الأصل في مَن أظهر الركونَ إلى الكفَّار وموافقتهم وموالاتهم أنْ نحكم عليه بالظاهر كما تقدَّم، والله يتولَّى السَّرائر إنْ كان على غير ذلك، ويبعث على نيَّتِهِ إنْ قتلهُ المسلمونَ في صفوف الكفّار، وإنْ أُسِرَ تجري عليه أحكام الكفَّار كما تقدَّم، والمسلمون معذورون في قتل كلِّ مَن أظهر مثل هذا وإنْ ادَّعى وزعم أنَّه يبطنُ الإسلامَ وموالاةَ أهلِهِ). وهذا قولٌ عظيمٌ يَخجَلُ إبليسُ نفسُه من أن يقوله، فهذا الشخص يجعل الناس كلَّها كفرةً ومستحقةً للقتل لأنَّها تُخالِفُهُ في النَّظرةِ السِّياسيَّةِ.

هذا المجرم يُحلِّلُ قتل المؤمن غير المقاتِل على الشبهة، في حين أنَّ رسول الله، حرَّمَ قتلَ المُشرِكِ المُقاتِل على الشبهة، وبعد كلِّ هذا يدَّعي أنَّهُ على ملَّة إبراهيم ورسول الإسلام، هذا المجرم لم يُخبرنا بأيِّ حقٍّ

وبأيَّةِ سلطةٍ وبأيَّةِ وكالة ربَّانيَّةٍ، يُكفِّرُ هذا على الظَّن ويُثبِتُ إيمانَ الآخر على الظَّنِّ أيضًا؟ وبأيَّةِ سلطةٍ يبيح لنفسه قتلَ المؤمنينَ والمسلمينَ بعد أنْ يكفِّرُهم على الشبهة؟ ومن أين أتى بشرعيَّةِ قتل الكافر الذي لا شبهةَ على كفرهِ على أيَّةِ حال؟ وأكثرُ من هذا قولُهُ: إنَّ ديار المسلمين اليوم هي ديار حربٍ وتحت احتلالٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ بما في ذلك مكة والمدينة. فهو ضمنيًّا يدعو إلى قتل الناس في هذه المدن وسائر بلاد المسلمين، ما داموا يعملون في دوائر الدول ويؤيِّدون حكومات بلادهم. ولا يخفى أنّ الهدف من كلامه هنا، هدفٌ سياسيٌّ بحتٌ، ولا علاقة لمحمدٍ ولربِّ محمدٍ به لا من قريب ولا من بعيد. وينقل قولاً يخالف فيه أوامر الله والرسول وينسبه إلى أحد شيوخه يقول فيه: (اعلم – رحمك الله – أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفًا منهم، ومدارةً لهم، ومداهنةً لدفع شرِّهم، فإنَّهُ كافرٌ مثلهم وإنْ كان يكرهُ دينَهم ويبغضُهم ويحبَّ الإسلام والمسلمين)!!!! ولن أُعلِّقَ كثيرًا على هذا القول ولكن لو كانت هذه ملَّةُ رسولِ الله لكفر وقتل سيدنا عمّار بن ياسر! وهذا القول يخالف صريح القرآن الكريم في الآية التي نزلت في سيِّدنا عمّار. ويكفي أنْ نستذكر معًا أنَّ الله يخبر

رسوله الكريم بوجود منافقينَ بين أتباعه – والمنافقون أشدُّ خطرًا من الكفَّار – ثم لا يخبرهُ بأسمائهم ولا يدعوه إلى قتلهم حفاظًا على وحدة الأمة، لندرك المفارقة، وتتضح الحقيقة، وكما عبَّر رسول الله بقولهِ: «حتى لا يُقال إنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَهُ»، وهذا نجدهُ في الآية الكريمة: **(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ)**. ﴿التوبة:١٠١﴾

مما سبق، ومن خلال سيرة الرسول، يتضح وضوح الشمس في رابعة النهار خروج التكفيريين عن مسار أمَّة المسلمين وعن تعاليم رسول الله وسنتّه، وعن القرآن الكريم فهو خوارج العصر.

وأخيرًا أتساءلُ:

ماذا سيقول للهِ تعالى كلُّ تكفيريٍّ يقتلُ مسلمًا على الشبهةِ؟ وعلى مبدأ: « مَن كان من أهل اللهِ فاللهُ يتولاه.» ماذا سيقول وهو يقرأ قوله تعالى في سورة المائدة: **(لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ**

أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)؟ ﴿المائدة:٢٨-٣٠﴾

وبناءً على هذا المبدأ الأعوج الذي يُبرِّرُ للتكفيريين أعمالَهم الإجراميَّة فإنَّ قابيلَ قد عمل صالحًا بتسريع ذهاب هابيل إلى الجنة!!! كمسلمين، علينا أنْ نعيَ أنَّ هناك فرقًا كبيرًا بين تعاليم سيدنا - محمد صلى الله عليه وسلم - وتعاليم المقدسي وأمثاله. وعلى المسلم الفطن الاختيار، ومن ثم التبيين للناس على أيِّ نهجٍ هو، ولماذا اختاره.

(١-٣) تلبيس إبليس:

نحاول في هذا الفصل أنْ نستعرض الأخطاء التي وقع فيها كاتب «ملَّة إبراهيم» – وباختصار – حتى يتسنّى للقارئ معرفة واقع حال الجماعات المتشددة وواقع حال من ينخدع بخطابهم، ولا نستغرب هذا ممَّن سلَّم نفسَهُ وعقلَهُ لإبليس وابتعد عن هدى الكتاب المبين، إذ يجد المتتبعُ الكثيرَ من التناقضات في كتاب المقدسي، فعلى سبيل المثال: إنَّهُ يدعو إلى قتل المسلمين بالشبهة إنْ أظهروا ما يظنُّهُ ولاءً إلى مَن يعتقد أنَّهم كافرين، وإنْ كان القاتل مخطئًا في اعتقاده وقَتَل مسلمينَ – حسبما يرى المقدسي – فإنَّ الله يتولَّى المسلمينَ برحمتهِ، ومن باب آخر يبرزُ في الصفحة الخامسة من كتابه جدال سيدنا إبراهيم مع الملائكة بخصوص

قوم لوط بأنَّهُ حريصٌ على هدايتهم قبل إهلاكهم ويتجاوز ذلك ويقول ما نصه: (أوليس الفقه السليم، يقتضي حمل مثل هذا الجدال المطلق وفهمه على ضوء قول النبي صلّى الله عليه وسلم: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبدُ اللهَ وحده لا يُشرِكُ به شيئًا») والحديث رواه الشيخان، وهنا، من حق أيِّ شخصٍ عاقلٍ أنْ يسأل المقدسيَّ: إذا كنتَ تتبع سنَّةَ النبيِّ فعلاً فكيف تُفتي بقتلِ المسلمينَ والمشركينَ ومَن يختلفُ معك سياسيًّا على الظن والشبهة؟ ولم لا ترجو أنْ يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مؤمنينَ موحِّدينَ كما كان رسولُ اللهِ يرجو؟ ومردُّ هذا التناقض أمرانِ لا ثالثَ لهما: فإمَّا أنْ يكون المقدسيُّ وغيرُهُ من شيوخِ التكفير أدواتٍ بيدِ مخابراتٍ دوليَّةٍ، وضمن لعبةٍ كبيرةٍ، لأنَّهُ من المستحيل أنْ يقعَ في مثل هذه الأخطاء الجِسام شخصٌ له اطلاعٌ بسيطٌ على القرآنِ، وإما أنهم أدواتٌ بيد إبليس يحرِّكُهم كيفما يشاء، أي حمقى وأغبياء، وكما هو معروف فإنَّ الجاهلَ يفعلُ بنفسهِ ما لا يفعله به عدوه.

ولا يخفى على قارئ كتاب «ملة إبراهيم»، اجتزاء المؤلف الآيات

وعدم إكمالها لتوافِقَ هواه - كما أسلفنا الكلامَ[1] عن سورة الممتحنة في الآية الرابعة التي لم يكملها المقدسيُّ ولا مرةً في كتابهِ- كذلك نقله عن بعض علمائهِ من المتأخِّرينَ، وليس من كلام سيِّدنا محمَّدٍ أو الصحابة الكرام، مثل نقله قولهم: (مَن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفِّرهم فهو غيرُ مسلمٍ وممَّن قالَ اللهُ تعالى فيهم: «ويقولونَ نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعضٍ ويريدونَ أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقًا واعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا». وهذه الآية تنطبق عليهم قبل غيرهم ولكن زيَّن لهم الشيطانُ سوءَ عملهم، فالتكفيريُّونَ المُتطرِّفونَ هم مَن يُهملونَ آياتٍ صريحةً واضحةً من كتاب الله ويتمسَّكونَ ببعضٍ، إذ يهملونَ آيةً صريحةً من كتاب الله تدعو إلى برٍّ وقسطِ الكافرين والمشركينَ ممَّن لم يُقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم، ويحاولون أن يجعلوا علاقة المسلمين مع الجميع علاقةَ عداوةٍ وبغضاء، مخالفين بذلك أمر الله تعالى: (**لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)﴿الممتحنة:٨﴾،

(١) انظر، صفحة ٧و ٨، من هذا الكتاب.

كذلك اجتزاءُ المقدسيِّ لآية رقم٢٥١ من سورة البقرة في الصفحة ٣١ من كتابه حيث نقل الجزء الآتي من الآية فقط: (ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدت الأرضُ) ويقول في تفسير هذه الآية: (إنَّ الدِّينَ لا يظهرُ إلَّا بالمدافعةِ والبلاءِ، وبذلك يكون إعلاءُ دينِ اللهِ وإنقاذُ الناسِ وإخراجهم من الشِّركِ باختلافِ صُوَرِهِ). وكلامه هذا قمَّةُ تحريفِ كتابِ الله لأنَّ هذه الآية لا تعني ما ذهب إليه، بدليل قوله تعالى: (**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**) ﴿الحج:٤٠﴾ فالله – سبحانه وتعالى – هنا، يوضِّحُ أنَّ دفعَ الناسِ بعضَهم ببعضٍ كان سببًا في عدم هدم صوامع ومساجد، فالدفع في الآيتين لا يأتي بمعنى القتال، وإنما التنافس المبني على حسن النية. ولذلك بين الله تعالى أن الدفع يؤدي إلى عدم فساد الأرض في الآية الذي ذكرها المقدسي في كتابه لأن التنافس بطبيعة حاله يفرز الأفكار الأفضل والأبرز. أما بقاء دور العبادة كالمساجد والصلوات والبيع والصوامع في الآية الثانية فيؤكد على بقاء التدافع (التنافس) بين الناس

على مختلف اعتقاداتهم، وبما يضمن عدم فساد الأرض وحرية التعبير وكل حسب اعتقاده.

إن بقاء الصوامع والمساجد والمشركين والملحدين في الحياة الدنيا، أمر طبيعي ولو شاء الله تعالى لآمن كلُّ مَن في الأرض كما في قوله تعالى: (**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**) ﴿يونس:٩٩﴾، ولكنَّ الحياةَ مرحلةٌ يمرُّ بها الإنسان ليميِّز اللهُ الصالحَ من الطالح. وتجب ملاحظة أنَّ التمييزَ ليس على أساسٍ دينيٍّ فقط، بل إنّ العمل الصالح له دورٌ كبيرٌ؛ فلا قيمة لإسلامِ فردٍ بلا عملٍ صالحٍ، وخيرُ الناسِ مَن نفع الناس. كما نلاحظ أنَّ تفسيرَ المقدسيِّ الشَّيطانيَّ ودعوته إلى قتال الآخرين، هي دعوة سخيفةٌ. فلا هو وغيره يستطيع أن يقتل كل مَن يُخالفه الرأي أو أنْ يُخرِجَ الناسَ جميعًا من الشِّرك إلى الإيمان، بل على العكس من ذلك، أثبتت تجارب بن لادن وما جرى في العراق وأفغانستان إنَّهم أبعدوا الناس عن دين الحق و بغضوهم فيه ونفروهم منه وساهموا في إضلال خيرةِ شبابِ المسلمين بخداعهم وجعلهم أداةً من أدوات الشيطان، لقتل المسلمين قبل غيرهم، اعتمادًا على الظن والشبهة، بغيًا

وعدوانًا. وهذا هو هدف إبليس الذي امتطاهم لتحقيق مآربه.

من تلبيس إبليس أيضًا، ما نجده في الصفحة ٢١ من الكتاب إذ أورد قوله تعالى: (**قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**) ﴿الشعراء:٧٥-٧٧﴾، إذ يستدل بهذه الآيات على عداوة المشركين والكافرين وحتى المسلمين ممَّن يخالفونَهُ سياسيًا، في حين أنَّ الضمير "هم" يعودُ وبصورةٍ واضحةٍ إلى المعبودين من دون الله، يعني أنَّ العدو هم الأصنام أو الأفكار التي تتمُّ عبادتُها مِن دون الله، وليس الناس لأَنَّهُ لو كان المقصود به الناس، لكان التعبير (فأنتم عدوٌ لي) لأَنَّهُ يُخاطبُهم بشكلٍ مباشرٍ، فهذا الشخص يريد أن يجعل علاقة المسلمين بالناس علاقةَ عداوةٍ وبغضاءَ متناسيًا قوله تعالى: (وما أرسلناك إلَّا رحمةً للعالمين) ولاحظ تعبير "العالمين" وليس "المسلمين"، ولو كان الأمر بيده لجعلها (وما أرسلناك إلَّا نقمةً على العالمين.)

من تلبيس إبليس، أنَّه يستدلُّ بأفعال نمرود مع سيدنا إبراهيم أو بأفعال سادات قريش مع سيدنا محمد ويستنكرها، وفي الوقت نفسه، يدعو شباب المسلمين إلى تطبيق أفعال هؤلاء الطغاة وترك أفعال الأنبياء؛

فمثلاً يقول مبررًا دعوتَهُ قتلَ المشركينَ في الصفحة ٢٠ من كتابه: (فإنَّ مَن يصرِّحُ بالعداوة للمشركين والبراءة منهم لا يتركونه بين أظهرهم بل إمَّا قتلوه وإمَّا أخرجوه إنْ وجدوا إلى ذلك سبيلاً) وهو يريد أنْ يقول: ما داموا يفعلون ذلك بنا فالمفروض أنْ نفعلَ بهم الشيء نفسه وكأننا لسنا أمة محمد القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، بل كأننا أمة قطاع طرق كلٌّ هدفِها السَّيطرة على الحكم عن طريق الغدرِ والتفجيرِ والقتلِ على الظَّنِّ والشُّبهةِ.

ومن تلبيس إبليس، أنَّه يُصوِّر لنا أنَّ الإسلام لا يستقيم إلَّا بعداء الآخرين، وكأنَّه يريدُ أن يضيفَ إلى أركان الإسلام ركنًا جديدًا. ويا ليتهُ اكتفى بإضافةِ هذا الرُّكن وإنَّما حاول جعله أهمَّ الأركان، بدليل أنَّهُ ينقل من كلام بعضِ المتأخِّرينَ ممَّن لا يقلُّون عنه تطرُّفًا قوله: (مَن قالَ لا أُعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفِّرهُم؟ فهو غير مسلم)!!! وهذا قولٌ غريبٌ لأنَّهُ يجعل مقياس إيمان الفرد هو عداء الآخرين وتكفيرهم وليس الصَّلاة والصَّوم والحج وبر الوالدين وعدم السرقة وحفظ الأمانات والكلمة الطيبة والصدقات فهذه كلها لا قيمة لها في نظر هؤلاء.

ولا ينسى إبليس أن يُلبِسَ على المقدسي ببعض الكلامِ الشَّاعريِّ الإنشائيِّ الذي لا قيمة له، فبعد كلِّ التكفير والحقد والقتل الذي نشره وينشره بين صفوف الناس، يتحفنا بقوله في الصفحتين (١٧، ١٨): (فالمسلم للمسلم كما يقول شيخُ الإسلام كاليدين تغسلُ إحداهُما الأخرى وربَّما احتاجَ إزالةَ الأوساخ أحيانًا إلى شيءٍ من الشِّدَّةِ التي تحمد عاقبتها، لأنَّ المقصود من ورائها الإبقاء على سلامة اليدين ونظافتهما)[1] ولا أدري أيَّةُ سلامةٍ يتكلَّم عنها ويريدُها المقدسيُّ وأمثالهُ، و قد بتروا اليد وذبحوها من الوريد إلى الوريد!!!

ومن تلبيس إبليس ما يقوله المقدسي عن التوحيد في الصفحة (١٤) من كتابه (سورةُ الإخلاصِ دليلٌ على الاعتقاديِّ منهُ وسورةُ الكافرون دليلٌ على العمليِّ) وهذا كلامٌ جميلٌ، والنتيجة المنطقية لمن يقرأ سورة (الكافرون) ويقتنع بمحتواها ويؤمن به، أن يكون منهجه مخالفًا تمامًا لمنهج التشدُّدِ والتكفير لأنَّ اللهَ بصورةٍ واضحةٍ يأمر رسوله بأنْ يُخاطبُ الكافرينَ ويقول لهم: لكم دينكم ولي دين. وهدف هذه

(١) يبدو أنه لم يسمع من قبل بصابون «Dettol» الذي يعقم سريعا بلا شدة، ونسي قوله عليه السلام:" ما كان الرفق في شيء إلا زانه."

المقولة أنَّ لكلٍّ منَّا الحقَّ في أنْ يعتقد بأيِّ دينٍ يشاءُ. وهذا الحق يعني بالضرورةِ حرِّيَّةَ أنْ يُعبِّرَ كلُّ طرفٍ عن دينهِ؛ فهو لا يعبد ما يعبدون، ولا هم يعبدون ما يعبد، وينتهي إلى هنا النزاع؛ فلا قتل، ولا تفجير، ولا تدافع التطهير العرقي، ولا تكفير، وكل طرف يمكنه أن يعبر عن أفكاره بحرية تامة، كنتيجة حتمية.

وهكذا، نجد هذا الكتاب مليئًا بالتناقضات والأحقاد وسوء الظن بكتاب الله وسوء التفسير، وإنْ كانت البعرة تدلُّ على البعير، فإنَّ كتاب المقدسي يدلُّ على ضحالة الفكرِ التكفيريِّ وعلى طريقةِ تعامُلٍ جافَّةٍ مع آيات القرآن، تُبعِد الآيات عن سياقها وعن غايتها بشكلٍ لا يخفى على الإنسانِ المُنصِفِ أيًّا كانَ دينُهُ واعتقادهُ.

(١-٤) كتاب «ملَّة ابراهيم» والسياسة:

قد يتصوَّرُ المنخدعونَ بكتابِ «ملَّة إبراهيم»، أنَّها دعوةٌ إلى إحياءِ دينِ اللهِ القيِّمِ وإزالةِ البدعِ والعودةِ إلى عصر الأمجاد، ولكنَّ الحقيقة إنَّ هذا الكتاب هو دعوةٌ سياسيَّةٌ بحتةٌ صادرةٌ من جماعةٍ من الناسِ تهدف إلى الوصول إلى سدَّةِ الحكم مهما كلَّفها ذلك من إراقةِ دماءٍ واستباحةِ حرماتٍ. والمشكلة الكبرى أنّه لا خطةَ لديهم لحكمِ الناسِ وتوفير الخدماتِ، وإنَّما هدفهم فقط الوصول إلى الحكم وقتل كلِّ مَن يُخالفهم مُدَّعينَ أنَّهم يطبِّقونَ ما أراده الله تعالى، وهذا واضح من واقع السلفية الجهادية اليوم في مختلف الدول ومنها ما حدث مؤخرًا في

سوريا من قتالٍ بين داعش وجبهة النصرة بالرغم من حملهما الفكر نفسه، ولكن المشكلة بينَهما هي مَن يُسيطرُ على مَن، إذ لا إشكالَ دينيٌّ بينَ جبهة النصرة وداعش وكذلك في بقيَّة البلدان التي ابتليت بهذه النبتة المسمومة.

هدف هذه الجماعات المُعلن هو إقامةُ دولةٍ دينيَّةٍ، ولكن هذه الدعوة لن تخدعَ المؤمنَ الفطِنَ لأنَّ الأُسسَ والمباني التي قامت عليها هذه الجماعةُ المتطرِّفةُ هي مبانٍ سياسيَّةٌ تَعُدُّ السيطرةَ على الحكمِ غايةً، وإنْ قالوا: «إنَّ الحكمَ إنَّما هو وسيلة لتطبيق شرعِ اللهِ!» ولكنَّ واقعَ الحالِ يؤكِّدُ أنَّهم لن يقبلوا بغيرِ الحكم بديلاً إذ لو جاءهم حاكمٌ وقال لهم: «أحكموا بشرعِ اللهِ.» فلن يقبلوا منه غير كرسي الحكم، فالحكم الذي يسعونَ إليه هو حكمٌ دكتاتوريٌّ عنصريٌّ قمعيٌّ بنكهةٍ إسلاميَّةٍ، وهو لا يختلف عن حكم فرعون أو النمرود، فهم لا يتقبَّلون الرأيَ الآخر سواءً كان بعيدًا أو قريبًا من آرائهم، وسواء كانَ في أمورٍ رئيسةٍ أو ثانويَّةٍ، فالرأي الآخر مرفوضٌ تمامًا، كما إنَّهم يرفضونَ أيَّةَ نظريةٍ للحكم تُخالف نظريَّتهم ويرفضون أنْ يُعبِّر الآخرون عن اعتقادهم بحريَّةٍ، ويرفضون أن يشاركهم في الحكم من يخالفهم في الاعتقاد،

وهذا النَفَسُ واضحٌ في كتاب المقدسي «ملَّة إبراهيم»، إذ تجدهُ – في خضم كلامهِ عن البراءةِ من المشركين – يحشرُ الأنظمةَ السياسيَّةَ والدساتير والديمقراطية حشرًا، بعد أنْ أنساهُ الشَّيطانُ أنَّ الرسول أوَّلُ مَن شرعَ الدَّساتيرَ بعد دخولهِ المدينةَ المُنوَّرةَ، وذلك بإصدارهِ وثيقةَ المدينة كدستورٍ مدنيٍّ ينظِّمُ التعايشَ بين المسلمينَ واليهودَ وغيرهم، وهذا هو هدفُ الدساتير في عصرنا الحاضر؛ تنظيمُ التعايشِ السِّلميِّ بين أبناء الوطن الواحد بما يضمن حقوق الأفراد الإنسانيَّةِ والدينيَّةِ والعدالةِ الاجتماعيَّةِ. ولا أعرفُ شريعةً من شرائعِ الأنبياء تقف بالضدِّ من هذا، ولذلك نجد المسلمين يعيشونَ ويتفاعلونَ بشكلٍ أكثر إيجابيَّةً في الدول الغربيَّة والديمقراطية حيث يمارسونَ طُقوسَهم الدِّينيَّةَ بحرِّيَّةٍ، وبالطبع يوجد بعض الممارساتِ مثل منعِ الحجابِ في الدوائرِ الرَّسميَّةِ في فرنسا، ولكن بمرور الوقت يمكن تغييرً القانونِ فالدول الديمقراطيَّةُ مِن ميزاتها أنَّها تستمعُ لأصواتِ مواطنيها، ولذا أعتقدُ جازمًا ألّا خوفَ من الديمقراطيَّةِ في الدُّولِ الإسلاميَّةِ، لأنَّ مَن يُشرِّعُ القوانينَ هم ممثلو الشَّعب وما دام الشعبُ مسلمًا فإنَّ ممثليه لن يصدروا أيَّ قانونٍ يُخالفُ إرادةَ الشَّعبِ المُسلمِ، وهذا ما عمل عليه الرُّسلُ؛ فهم لم يكونوا دُعاةَ

سُلطةٍ وحكم باعتباره وسيلة لفرض الإيمان والشَّريعة على الناس، وإنَّما كانوا دعاةً إلى اللهِ بالحكمةِ والموعظة الحسنةِ، وهذا الأمر وحده كفيلٌ بإنشاءِ مجتمعٍ إسلاميٍّ حقيقيٍّ، وأعتقد لو أنَّ المتطرِّفينَ عاصروا الرَّسولَ لكفَّرُوهُ على دستور المدينة، وكذا لكفَّرُوهُ على صُلحِ الحُديبيَّةِ وقاتلوهُ كما قاتل الخوارجُ سيِّدنا عليَّ بن أبي طالب. علمًا أن الآيات القرآنية التي تؤكد على وجوب الحكم بما أنزل الله مقصود منها القضاء العادل.

وحتى نبيِّنَ للقارئ الكريم التوجُّهَ السِّياسيَّ الواضح لكتاب «ملَّة إبراهيم»، نذكر بعض الأمثلة:

فقد ورد في الصفحة ٦٣: (ثم نظرتُ في أحوال كثيرٍ من المنتسبين للدعوة والإسلام في هذا الزمان، وما يقع منهم من مباركةٍ ومداهنةٍ بل ومناصرةُ ومؤازرةُ عبيد القانون وأذناب الفرنجة وأعداء الشريعة والتوحيد، وما يظهروه من مولاة دساتيرهم وحكوماتهم والقسم على احترام قوانينهم) ويقول في الصفحة ٢٣: (وإنَّنا لنعجب، أيَّةُ دعوةٍ هذه التي يتباكى أولئك الدُّعاةُ على مصلحتِها وأيُّ دينٍ هذا الذي يريدونَ إقامتَهُ وإظهارهُ وأكثرهم يلهجُ بمدحِ القانونِ الوضعيِّ - ويا للمصيبة

- وبعضُهم يُثني عليه ويشهدُ بنزاهتهِ وكثيرٌ منهم يقسمُ على احترامهِ والالتزامِ ببنودهِ وحدودهِ، عكسًا للقضية والطريق، فبدلاً من إظهار وإبداء العداوة له والكفر به، يظهرون الولاء له والرضا عنه، فهل مثل هؤلاء ينشرون توحيدًا أو يقيمون دينًا ؟؟) وكذلك يقول في الصفحة نفسها: (ها نحن نعايش في هذا الزمان انتشار شرك التحاكم إلى الدساتير والقوانين الوضعية بين ظهرانينا)، ولا أعرف كيف أصبح الدُّستورُ الذي ينظِّمُ حياةَ النَّاس نوعًا من أنواعِ الشِّرك؟!! ومن ثم يقول في الصفحة ٢٧ - وهو يتكلَّم عن السِّياسةِ والدَّولةِ وينسبُ الكلامَ لسيِّدنا إبراهيم زورًا-: (لا يُقال له إلَّا كما قال إبراهيمُ والذين معه لقومهم: إنَّا براءٌ منكم ومن دستوركم وقوانينكم الشِّركيَّة وحكومتكم الكُفريَّة) ولا نعرف متى قال إبراهيم هذا؟؟!! وبالعموم، إذا كان القانون جيدًا ويحترم حرية التعبير، ويوفر العدالة للناس، فإنَّ الإسلام سوف يشهد بنزاهته ويحترمه ويحترم بنوده. ويجب التنبيه هنا، إلى إشارةٍ قرآنيَّةٍ مهمَّةٍ جدًا، ألا وهي أنَّ الولاءَ محرَّمٌ ولا يجوز مع الذي يحاول تهجير المسلمين من أرضهم ومقاتلتهم. ما عدا ذلك، فالواجب هو بِرُّ غير المسلمين والقسط إليهم تطبيقًا لقوله تعالى في سورة الممتحنة: (**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ**

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ﴿الممتحنة:٨-٩﴾ فالمسلم، كممثّل لرسوله الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، وجعله على خلق عظيم، مشكلته ليست مع الناس كبشر مخالفين له في المعتقد، إن مشكلته في الحقيقة، مع الظلم والقمع أياً كان مصدره من شخص يدّعي الإسلام أو لا. فهو يتعامل مع ظواهر وليس مع شخوص.

(٢) ملَّة الأنبياء والرسل:

بعد أنْ استعرضنا بعضَ ما جاء في كتاب المقدسي من التناقض الواضح والابتعاد عن روح القرآن وتوظيف الدين لخدمة أهداف سياسيَّةٍ دنيويَّةٍ، نستعرض في السطور القادمة ملامح من ملل الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، وطريقة تعاملهم مع المخالفين لهم ليتبيَّن للمُنصِفِ مقدار الكذب الذي يُمارسه المتشدِّدونَ على أولادنا وأهلنا حتى جعلوا من بلدان المسلمين والناس جميعًا أهدافًا مشروعةً للقتل والذبح والتفجير.

(٢-١) ملَّةُ أبينا إبراهيم:

سيدنا إبراهيم الذي تعرَّفنا عليه عن طريق القرآن هو مثالُ المؤمن الواعي، وممَّا يؤسفني ويؤرِّقُني أنْ يتَّخذه المُتشدِّدون ذريعةً لجرائمهم

الشيطانيَّةِ التي لم يكونوا ليقترفوها، لو أنَّهم اتبعوا سيرة سيدنا إبراهيم في القرآن. ولكن هيهات، هم تركوا القرآن وتمسَّكوا بكتبٍ واهيةٍ لن تغني عنهم شيئًا يوم القيامة، إذ إنَّ مواقف سيدنا إبراهيم القرآنية هي مواقفُ الإنسان العابد المُحبِّ للناس، لذا تراه يستغفر لمَن لم يتبعه من قومه بالرَّغم من أنَّه يرى ضلالهم، ولكن لم يتبيَّن له كفرُهم ولذا نجدهُ يستغفر لأبيه (أو عمِّه كما يعتقد البعض) مرات عديدة:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ﴿الممتحنة: ٤﴾

وقوله تعالى: **(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً، قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً)** ﴿مريم: ٤٤-٤٧﴾

ونجده لا يتوقَّف عن الاستغفار لعمِّهِ حتى تبيَّن له أنَّهُ عدوٌ للهِ، كما قال

تعالى: (**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّـهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**) ﴿التوبة: ١١٤﴾، وهنا يجب الإشارة إلى الفرق بين الضلالة والكفر فيكون الإنسانُ ضالاً عندما يكون اختياره الخاطئ مبنيًا على مبلغ علمه واجتهاده، ويكون الإنسانُ كافرًا إذا اختار الضلالة بالرغم من معرفته بالهدى واقتناعه به، عنادًا وتكبُّرًا أو لمصالح دنيوية. سيدنا إبراهيم نبيٌّ يُوحى إليه، وبناءً على ذلك تبيَّن له كفرُ أبيه وأنَّه عدوٌ للهِ فتوقَّفَ عن الاستغفارِ له، ولكن لم يقتله ولم يضيِّق عليه. فبأيَّةٍ سلطةٍ يأتي اليوم أشخاص ليفجِّرُوا الناسَ في الشَّوارعِ أو يذبحونهم وهم لم يتبيَّنوا، وأنّى لهم أنْ يتبيَّنوا؟ وإنْ تبيَّنوا وتيقَّنُوا فأقصى ما يمكنهم أن يفعلوه هو عدم الاستغفار، اتباعًا لملَّة سيّدنا إبراهيم. هذا القتلُ والتفجيرُ والذبحُ هو بكلِّ تأكيدٍ اتباعٌ لملَّةِ الشَّيطان، سيدنا إبراهيم الذي توقَّف عن الاستغفار لأبيه بعدما تبيَّن له أنَّهُ عدوٌ لله لم يتوقَّف عن الاستغفار لسائر مَن خالفهُ من الناس وهم مشركون. وللتأكيد نكرِّرُ أنَّ إبراهيم كان يستغفرُ لأبيهِ وهو يعبدُ الأصنام ولم يتوقَّف حتى تبيَّن له أنَّهُ عدوُ الله، بعبارةٍ أخرى يجوز الاستغفار للمشرك والضَّالِ. أمَّا في حال التبين أنَّ هذا

الشَّخصَ كافرٌ، أي رافضٌ للحقِّ بعدما تبيَّن وتأكَّد له طريق الحقِّ، فلا يجوزُ الاستغفار له. ولكن في الوقت نفسه لا يجوز قتله أو تهجيره أو التضييق عليه ويتجلّى ذلك واضحًا في قوله تعالى: (**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) ﴿إبراهيم:٣٥-٣٦﴾ إذ إنَّ سيّدنا إبراهيم، وبشكلٍ واضحٍ، يطلب من الله أنْ يغفرَ ويرحمَ مَن لم يتبعهُ، وواضحٌ أنَّ مَن لم يتبعهُ هم المشركون. وهو نفس موقف سيدنا عيسى الوارد في القرآن الكريم - والذي سيتم ذكره لاحقا-. هنا من حقنا أنْ نتساءل: على أيِّ أساسٍ يعتقدُ مَن يفجِّرُ الناسَ ويذبحهم أنَّهُ من أتباع ملَّة إبراهيم !!!

بقي أنْ نُشير إلى مظهرٍ مهمٍّ من مظاهر ملّة إبراهيم، ألَا وهو العداء كما بيَّن ذلك الله تعالى في الآيات الكريمة من سورة الشعراء: (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**) ﴿الشعراء:٦٩-٧٧﴾

ولكنَّ العِداء لِمَن؟ الآيةُ واضحةٌ، الضميرُ «هم» يعود على الأصنام وليس مَن يعبدها – كما ذهب أبو محمد المقدسي – وجعل كلَّ مَن لا يعبدُ الله عدوًا له!!! وكعادة التكفيريِّين حرَّفَ المقدسيُّ معاني القرآن بشكل لا يقبلُ الشكَّ، لأنَّ عائديَّة الضمير واضحةٌ، وهذا التحريف ضروريٌّ لمَن يُعطي لنفسِهِ ولأتباعهِ مقامًا في معاداة الكافرين وقتالهم لم يعطِهِ اللهُ تعالى لأنبيائه. وقد يحتجُّ بعضهم بالآية التي اجتزأها واحتجَّ بها كثيرًا أبو محمد المقدسي، وهي قوله تعالى: (**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**) ﴿الممتحنة:٤﴾. والمتدبِّر للآية الكريمة بأكملها، وليس كما يجتزئُ المقدسيُّ في كتابه المشؤوم، يلاحظُ أنَّ سيدنا إبراهيم وقومه قالوها بصراحةٍ: إنَّهم براءٌ ممَّا يعبدُ المشركون ومنهم، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ ولا يرفضهُ عاقل، أنا – بوصفي مسلمًا – من الطبيعي جدًا أنْ أقول لِمَن يعبدُ الأصنام إنَّني بريءٌ ممَّا تعبدُ وكافرٌ بهِ وأنا بريء منك لفعلك هذا،

ولكن هذه البراءة محصورة في الاعتقاد الديني وليس جميع قطاعات الحياة، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين، ولكن هذا لا يعني أنْ أُفجِّرَ أو أقتل أو أُحارب مَن لا يؤمن، إذ إنَّ سيرةَ سيِّدنا إبراهيم والآية الكريمة أعلاه، لا تأمرنا بذلك إلَّا إنْ قرَّرْنا اتباعَ هوى النفسِ وخطوات الشيطان، حيث إنَّ أقصى ما تذهبُ إليه الآية - إذا استمرَّ الكافرونَ بكفرِهم ولم يؤمنوا- هو أنْ تبدأ بيننا العداوةُ والبغضاءُ، و»بدأ» بطبيعة الحال لا تعني أنْ تحلَّ الحلولَ الكاملَ، ونرى ذلك بوضوحٍ في استغفارِ إبراهيمَ لأبيه والمجادلة في قوم نوح وهم القائمون بفعل اللواط.

وكذلك تجب الإشارة إلى أنّه ليس من ملَّةِ إبراهيمَ المُجادلة في أنظمةِ الحُكم، أو محاولة قلبها والسيطرة عليها، إذ لم نجد في كتاب الله أنَّ إبراهيم قد جادل النمرود في حكمهِ وإنَّما فقط في الدعوة إلى الله.

قبل أنْ نختم جولتنا القرآنية في ملَّة إبراهيم لا بدَّ لنا انْ نذكر مسألة تكسير الأصنام- ويا سبحان الله! - لا نشاهد إبراهيم كسَّرَ أسواقَ الكافرينَ ولا بيوتَهم ولم يقتلهم ولم يقتل كهنتهم ولم يغتَلْ وجهاءَ القومِ، ولكن كلَّ ما فعله هو تكسيرُ الأصنام ما عدا الصَّنمِ الكبيرِ حتى يُقيم الحُجَّةَ على قومهِ، حيث يقولُ لهم: إنَّ مَن كسَّرَ الأصنام هو ذاك

الصَّنمُ الكبيرُ فاسألوهُ لعلَّهُ يجيبُكم؟ فلم يكن هدفه (عليه السلام) العبث أو التخريبُ أو مجرَّدُ التكسير، وإنَّما هدفه التعليم والدعوة وإقامة الحجَّة على قومه، فكلُّ فعلِ الأنبياء يهدف إلى إقناع الآخرين بالحكمة والموعظة، وليس إجبارهم بالقتل والدماء. وأخيرا: مَن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

في نهاية الحديث عن ملَّة إبراهيم نستذكر معًا الدعاء الذي دعا به سيّدنا إبراهيمُ ورزقنا ببركاته نبوَّة سيّدنا محمد (عليه الصلاة والسلام). وكذلك نؤكِّد على أنَّ التكفيريينَ القتلة الذين أشاعوا الخراب والدَّمار في الأرض، هم ممَّن رغبَ عن ملَّةِ أبينا إبراهيم وقد سفّهوا بذلك أنفسهم. قال تعالى في محكم كتابه العزيز:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ﴿البقرة:١٢٨-١٣١﴾

(٢-٢) ملَّة الأنبياء:

يعلِّمُنا القرآنُ الكريمُ أنَّ ملَّةَ الأنبياء واحدة، وإنْ اختلفت شرائعهم. وأنّ الدين واحد وهو الإسلام، ولذلك نجد الله تعالى يأمر سيِّدنا محمدًا صراحةً باتّباع ملَّةِ إبراهيم بقوله تعالى في سورة النحل: (**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) ﴿النحل:١٢٣﴾ وكذلك قوله تعالى: (**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**) ﴿آل عمران:٦٨﴾، لهذا السبب نستمر في استعراض ملل الأنبياء منذ سيّدنا إبراهيم إلى ما بعده من الأنبياء، وبشكلٍ مختصرٍ لنبيّن فساد عقيدة السَّلفيّة الجهاديَّة، وبُعدِها

عن خطِّ الأنبياء بشكلٍ عامٍّ؛ فهذا موسى (عليه السلام) يأمره ربُّه بأن يقول قولاً ليّنًا لفرعون بالرغم من استكبار فرعون في الأرض، وكونه على رأس هرم السلطة الدينية والسِّياسيَّة، ولكن جاء الأمر الإلهي: (**اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**) ﴿طه:٤٣-٤٤﴾ ولكن الأعجب من هذا هو عندما رفض فرعون قول موسى وهارون فلم يكن ردُّ الأنبياء هو التهديد أو التفجير أو القتل، ولكن قالوا له بما معناه :»استمر في غيّك وطغيانك ولكن اترك المستضعفينَ يخرجوا معنا من أرض مصر.« بعبارةٍ أخرى:» نحن – بوصفنا أنبياء – ليست وظيفتنا إقامة نظام حكم أو معارضة نظام حكم، ولكن هدفنا هو الدعوة إلى الله ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.« كما بيَّن القرآن الكريم. ولكن – بالرغم من أنَّ من حقِّكَ أن تؤمن بما تشاء- لكن ليس من حقِّكَ أن تستضعف الآخرين، فحريتك تتوقف عندما تتجاوز حريةَ الآخرين، ولذا فإن موسى وهارون بعد أن خرجوا من أرض مصر لم يقيموا أيَّ نظام حكم، وإنَّما مجرد شرائع مجتمعية اتفقت عليها الأمم في عصرنا الحاضر بغض النظر عن إيمان أفرادها، فالأمم متَّفقة على منع القتل والغش والسرقة والبغاء وهذا يُثبت بُعدَ

نظر الأنبياء على أقلِّ تقدير.

من الضروري الإشارة إلى الرابط بين دعوة الأنبياء إلى الله من جهة، و تطلُّع الشُّعوب إلى الحرية والكرامة من جهة أخرى؛ فالنظرية الإلهية القرآنية يجب أن تكفل حريَّة الاختيار للناس جميعًا، وحرية الإيمان والكفر ليميِّز الله الطيِّبَ من الخبيث، وكذلك حرية اختيار النظام السياسي ونظام الحكم. وعليه، لا يمكن أن تصنع إنسانًا فاضلاً بإجباره على الفضيلة ولا إنسانًا مؤمنًا بإجبارهِ على الإيمان ولا إنسانًا ملحدًا بإجباره على الإلحاد، لذا فإن شروط النظرية القرآنية لنظامِ حكمٍ ما، هي العدالةَ وحريَّة التعبير وعليه، فإنَّ القرآن يدعو إلى الثورة لرفع الظلم عن الشعوب المستضعفة من قبل الأنظمة الدكتاتورية القمعية، بغضِّ النظر عن رؤوس هذه الأنظمة سواء أكانت أنظمة أسلامية أم غير أسلامية، وممَّا يجبُ الانتباهُ إليه أنَّ العمل على تحرير المستضعفين لا يعني الدعوة أو السعي للاستيلاء على سدة الحكم، إذ إنَّ عقلية السيطرة عقليَّةٌ شيطانيَّةٌ بعيدةٌ كلَّ البعد عن ملَّة الأنبياء وأوامر الله تعالى، وقد يتساءل البعض عن حروب الأنبياء وأسبابها – وسيأتي تفصيل ذلك لاحقًا، عندما حاول اليهود إدخال سيدنا عيسى في معركةٍ سياسيَّةٍ مع

قيصر قال: «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». فهدفهُ لم يكن سياسيًا بأيِّ حال من الأحوال-. الأنبياء هم دعاة إلى الله قد يشاركون الناس في نضالهم ضد القمع والاستكبار بدافع إنساني يضمن للجميع حرية التعبير والتفكير التي كفلها ومنحها الله لهم، ولذا نجد أن سيدنا عيسى لم يرفع السيف في وجه مَن يخالفه في العقيدة، بل على العكس تماما، إذ ينقل لنا القرآن موقف سيدنا عيسى ممَّن عبده من دون الله بقوله لله: هم عبادك إنْ تشأ تعذبهم أو تغفر لهم كما في قوله تعالى: (**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) ﴿المائدة:١١٨﴾ وهو نفس موقف سيدنا إبراهيم ممن لم يتبعه، وهنا نلاحظ أنَّ الله لم يُعقب على كلام سيدنا عيسى وإنَّما ترك الباب مفتوحًا، وهذا مصداقٌ على رضاه عن كلام سيدنا عيسى، حيث نلاحظ مثلاً أنَّ الله تعالى يعترض على كلام بعض الأنبياء ويُصحِّحُهُ لهم، كما قال سيدنا موسى: (**أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**) ﴿الأعراف:١٥٥﴾ فكان جواب الله تعالى في الآية التي تليها بقوله: (**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي**

أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) ﴿الأعراف:١٥٦﴾ لأنه ليس من العدالة أنْ يضل الله مَن يشاء من عباده إن كان تقيًا، ولذا صحَّحَ اللهُ مقولة سيِّدنا موسى مباشرةً وقال له: نعم عذابي أُصيب به مَن أشاء ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ بلا استثناء، ولكن سأكتبها للذين يتقون، فهي مرصودة لهم، وهم موعودون بها، وليس من العدل أن أصيب بعذابي من أشاء وإن كان تقيًا، فهذا من العبث وما كان الله من العابثين -حاشاه-. وإذا لاحظنا كلام الأنبياء بصورة عامة نرى أنَّهم قد جعلوا الحكم لله، والله سبحانه تعالى حصر الحكم بنفسه أيضًا، لذا لن نجد أيَّ نبيٍّ من الأنبياء حاول فرض الدين على الآخرين ولا عاقبهم لأسبابٍ عقائديَّةٍ، وإنَّما العقاب والقصاص محصورٌ بالله تعالى عندما يتعلّق الأمر بالإيمان والكفر.

سيدنا سليمان أحد الأنبياء الذين مكَّن الله لهم في الأرض ما لم يُمكِّن لأحد، فهل فجَّر أو أجبر الناس على الإيمان؟ بالتأكيد كلا، وينقل لنا القرآن الكريم قصته مع السيدة بلقيس وكيف عمل على إقناعها بالحجة والدليل، ولذا نراه يفكر مع مستشاريه بطريقةٍ أو بآيةٍ ليثبت صدق دعواه

لبلقيس، فكان عرش بلقيس ونقله هو الآية والدليل على صدق دعواه، فهم يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وكما عبَّر القرآن الكريم في قوله تعالى: (**قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ، قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)﴿النمل:٣٨-٤٤﴾، وهكذا بقية الأنبياء كلهم يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة، ومَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر، أمَّا الحساب والعقاب الإلهي فهو أمر إلهي لا يحقُّ حتى للأنبياء تطبيقهُ على الآخرين مطلقًا، لأنَّ دعوة الأنبياء لم

تكن غايتها الوصول إلى السلطة ولم تكن السلطة وسيلةً يستخدمُها الأنبياء لتطبيق شرع الله، ولم تكن في يومٍ من الأيام على جدول أعمالهم إلَّا بحدود العدالة وحريَّة التعبير، فأينما تواجدت العدالة وحرية التعبير ينتهي دور الداعي إلى الله في تفاعله مع السُّلطة والنظام الحاكم ويتفرّغ لدوره الدعوي. وسنناقش بتفصيل أكثر رسالة سليمان إلى بلقيس التي يتخذها البعض ذريعةً لقتال الآخرين على العقيدة لاحقًا في فصل رحلة القرآن الجهادية.

(٢-٣) ملَّة سيّدنا محمدٍ:

سيدنا محمد (صلوات ربي وسلامه عليه) هو الوريثُ الشرعي لرسالات الأنبياء، وخاتمهم. ويوضح لنا القرآن الكريم طريقة تعامله مع المشركين والكافرين والمنافقين وأصحاب الديانات الأخرى، وبالتالي فأولى الناس باتباعه هم السلفيَّة الجهاديَّة التي – للأسف، كما سنرى- تتبع خطوات الشيطان لا خطوات المصطفى محمد (صلوات ربي وسلامه عليه). مرَّةً ثانيةً نؤكِّد أنَّ سيدنا محمد، كمبلغٍ لرسالةِ الله تعالى، لم يكن من واجباته إجبارُ الناس على الإيمان بالله، بل، على العكس من ذلك، تتضافر آيات القرآن الكريم لتبيان أنَّ الرسول

ليس بمسيطر، وليس بوكيل، وأن الله أرسله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وأنت تقرأ القرآن الكريم تتعجب وتتساءل من أين أتى التكفيريُّون والانتحاريون بأفكارهم وكيف شرَّعوا لأنفسهم تفجير الآخرين وتهجيرهم وقتلهم بسبب اعتقادهم أو موقفهم السياسي، وعندما تتعمَّق في القرآن الكريم أكثر وأكثر تصل إلى قناعةٍ أنَّهم أبعد ما يكونون عن خطوات سيّدنا محمّدٍ (صلوات الله وسلامه عليه)، وأقرب ما يكونون إلى خطوات المتكبرين الغافلين الذين عبَّر عنهم الله بقوله: (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ**) ﴿البقرة: ١١٤﴾

وظيفة النبي مع الناس هي تبليغهم وتوضيح تعاليم الدين لهم، وليس عليه هدايتهم فهم مخيَّرون بين الحق والباطل ولأجل هذا خلقوا وكما بيَّن اللهُ تعالى في مُحكم كتابه العزيز: (**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ، إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ، إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم**) ﴿الغاشية: ٢١-٢٦﴾ فالحساب والعقاب على

رب العباد ولم يعطِ الله هذه المنزلة لرسوله الخاتم فكيف بمَن دونه؟!

ويوضح القرآن هذا المبدأ الإسلامي الأصيل بعدَّةِ مواضع منها: (**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**) ﴿الأنعام:١٠٧﴾ وكذلك: (**لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**) ﴿البقرة:٢٧٢﴾ ومنها في قوله تعالى: (**إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**) ﴿النحل:٣٧﴾، ونتيجة لحرص الرسول المتزايد على دعوة الناس وهدايتهم إلى الطريق السليم بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس بالذبح والتفجير نزلت آية كريمة تلومهُ على هذا الحرص الزائد، وتبيَّن له أنَّ وجود الكافرين والمشركين والمعاندين وغيرهم هو أمر طبيعي، ومَن يعتقد بغير ذلك فهو من الجاهلين كما في قوله تعالى: (**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) ﴿الأنعام:٣٥﴾، فوظيفة الرسول هي التبليغ: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ**

وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) ﴿الأحزاب:٤٥-٤٦ ﴾، في قوله تعالى: (**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)** ﴿الفتح:٨﴾.

أمَّا قتال النبيِّ لمَن قاتلهم فلم يكن تكبُّرًا في الأرض أو لفرض نظامِ حُكمٍ مُعيَّنٍ أو لإجبارِ الناسِ للخضوع لسلطةٍ مُعيَّنةٍ أو دينٍ مُعيَّنٍ، وإنَّما كان الأمر الإلهي واضحًا في تشريع القتال وحصرهِ بمَن يُقاتلُ المسلمينَ ابتداءً، ويعتدي عليهم كما جاء في قوله تعالى: (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(*) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)** ﴿البقرة:١٨٧-١٨٨﴾، فلا يجوز قتال غير المقاتلين ولا يجوز قتال مَن لم يعتدِ، وقد يحتجُّ بعضهم بسورة التوبة التي سنناقشها لاحقًا.

والأكثر وضوحًا لكلِّ مُسلمٍ، هو أمرُ الله بألّا يسبَّ المسلمونَ آلهةَ الكافرينَ والمُشركينَ والمُخالفينَ حتى لا يسبُّوا اللهَ بغيرِ علم!!! ما أعظمها من حكمةٍ لإشاعةِ روحِ الحبِّ بين الناس! ولكن -للأسف- هجر المسلمون اليوم هذه الآية، قال تعالى: (**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ**

مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ﴿الأنعام:١٠٨﴾. فهل من المعقول أنَّ الذي يأمرنا بعدم سبِّ ما يعبدهُ الآخرون من دون الله، سيأمرنا بقتال الآخرين وإجبارهم على الإيمان أو إجبارهم على نظامٍ سياسيٍّ مُعيَّنٍ! أو هل يرتضي التفجير والذبح والقتل بالشبهة!!

التعامل مع غير المسلم على وفق ملَّة سيّدنا محمدٍ، يجبُ أن يكون وفق الآية الكريمة في سورة الممتحنة التي ذكرناها سابقًا[1] **(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** فمَن لم يُخرِج المسلمينَ من ديارهم ولم يقاتلهم بالتأكيد لا يحق قتالهم، ولكن بالإضافة إلى ذلك ووفق هذه الآية يجب برّهم والقسطُ إليهم، وهذا يقتضي معاملتهم بالحسنى وعدم اعتبارهم درجةً ثانيةً والمسلمين درجةً أولى، وحتى لو فرضنا أن شخصًا أو جماعةً تنتمي إلى طائفةٍ دينيةٍ أو غير دينيةٍ كانت

(١) انظر: صفحة ٢١، من هذا الكتاب.

في حالة حرب مع المسلمين فلا يجوز قتال هذا الشخص أو الجماعة وإخراجهم من ديارهم إن لم يكونوا مقاتلين، فآيةُ تشريعِ القتالِ في سورة البقرة تحصرُ قتالَ المُسلمينَ بمَن يقاتلهم ووصيَّة رسول الله للجيوش الإسلامية خالدةٌ وباقيةٌ بألّا يقتلوا شيخًا أو عجوزًا ولا يقطعوا شجرةً، ولا يقاتلوا إلَّا مَن يُقاتلهم. إلى آخر هذه التوصيات التي تخالفها السلفية الجهادية جملةً وتفصيلاً، اتّباعًا لهوى أنفسهم وخطوات الشيطان.

هذه نبذةٌ مختصرةٌ عن سنّة أنبياء الله في التعامل مع الناس، ولمَن شاء التوسُّع، فالقرآن الكريم بحرٌ لا ينضب وعطاءٌ لا ينتهي. قد تبيَّن لنا أنَّ الله لم يخلق الناس، ليرسل لهم مَن يحكم باسمه ويجبرهم على اتّباع خطٍّ مُعيَّنٍ من الإيمان والأفعال. وإنَّما خلق الناس ليختاروا بأنفسهم، وكلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة، وليميّز الطيّب من الخبيث. فإذا أجبرهم المتطرِّفون فكيف يختارون؟ فالمتطرفون بنظرتهم التي تروم قتالَ كلِّ مَن يخالفهم، حتى يفرضوا شرعَ اللهِ على مَن لا يُريده أو على مَن لا يؤمن به، يحاولون بشكلٍ أو بآخر إبطال سُنَّةِ اللهِ وسُنَّةِ أنبيائهِ في حريّة الإيمان وحريّة العبادة، ويحاولون أن يتجاوزوا صلاحيات الأنبياء التي لم تكن أكثر من التبليغ والدفاع عن النفس، إلى صلاحيات المسيطر والوكيل والمتحكّم في البلاد والعباد كأيِّ

دكتاتور عبر التاريخ، وهذا ما يقف ضده القرآن سدًا منيعًا، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿هود:١١٨﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة:٢٥٦﴾. ومن عجيب أمر السلفيَّة الجهاديّة وغيرهم من المتطرّفين، أنَّهم يقولون أنْ «لا إكراه في الدين» قد نسخت بآية السيف وهذا كلامٌ عجيبٌ لأنَّ آية «لا إكراه في الدين» تُعطي سببًا واضحًا وصريحًا لعلّةِ عدمِ الإكراه، وهو تبيان الرشد من الغيِّ برسالةِ الخاتم (صلوات ربي وسلامه عليه). فالقول بنسخ هذه الآية يقتضي عدم تبيان الرشد من الغيِّ، ولذا يجب إجبار الناس على اتّباع الرُّشد بالسَّيف وهذا طعنٌ صريحٌ في رسول الله، ورسالة رب العالمين والقرآن الكريم، ولا نستغرب أنْ يقع مَن يتّبع خطوات الشيطان في هذه المطبّات الكارثية.

(٣) رحلة الجهاد القرآنية:

الجهاد هو أيٌّ جهدٍ يُبذل في سبيل الله تعالى ومنه القتال، فالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة جهاد، تربية نفسك على ترك المعاصي جهاد، إصلاح نفسك جهاد فإذا لم تصلح نفسك وأهلك وأقرباءك فقد فشلتَ في جهادك في سبيل الله. والموضوع يطول، ولكن سنركِّز في دراسة آيات القرآن الخاصة بالجهاد القتالي، ويجب ملاحظة أنّه من أصل ثمانية وعشرين أو تسعة وعشرين حربًا اشترك فيها الرسول، حدث قتال فعلي في ثلثها فقط لا غير، فرسول الله لا يقاتل الآخرين لأجل القتال وإنما لرد الاعتداء أو رفع المظالم كما أمره الله تعالى في كتابه

العزيز، وما إن تتوفر فرصة السلام العادل حتى ينتهزها الرسول كما في صلح الحديبية، ولكن إذا كان هذا السلام مقرونًا بالمهانة فلا يجوز القبول به. ولذا جاء قوله تعالى: (**فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّـهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**) ﴿محمد: ٣٥﴾.

وحتى نفهم مغزى القتال في القرآن الكريم، نقترح الخطوات الخمسة التالية للتدبُّر في كتاب الله وفهم آياته، ويمكن تطبيق هذه الخطوات مع آيات القرآن بصورة عامة:

أولاً- معاملة القرآن الكريم بوصفهِ وحدةً واحدةً:

أحد أهم طُرُقِ فهمِ القرآنِ الكريمِ هو معاملته كوحدةٍ واحدةٍ، فهو عقدٌ إلهيٌّ بين الإنسانِ وربِّهِ وكلُّ جزءٍ منه هو بندٌ أساسيٌّ لا يتمُّ العقد بدونه، وعلى هذا الأساس فإنَّ أيَّ تفسيرٍ لآيات القرآن يبطل أجزاء أو آيات أخرى من القرآن الكريم، يعتبر تفسيرًا مرفوضًا وفاسدًا ولا يعتدُّ به، إذ يجب أن يكون التفسير موافقًا لجميع آيات القرآن التي تتناول موضوعًا محددًا. ولهذا فعندما نتكلَّم عن آيات القتال مثلاً يجب أن يتمَّ استعراضُ جميع الآيات القرآنية المباركة من مختلف السور، التي تتحدَّثُ في هذا الموضوع للخروج بالمفهوم القرآني الصحيح. وعليه، فإنَّ الاجتزاءَ

وإخراجَ الآيةِ عن سياقها وعزلِها عن بقية الآيات التي تعالج الموضوع نفسه، يؤدي إلى أنْ يقتلَ التكفيريُّونَ الناسَ بالجملةِ اعتمادًا على قوله تعالى: (اقتلوهم حيث ثقفتموهم)، والأمثلة التي تعيبُ الاجتزاءَ حيث إن الرسالة السماوية تنحرف عن مضمونها في حال الاعتماد على الاجتزاء دون الالتفات إلى سياق الكلام والآيات التي تتحدث في الموضوع نفسه ضمن سياقات أخرى، وهذا أمر طبيعي يحدث لأي كتاب يتم اجتزاؤه وهنا تكمن خطورة الاجتزاء.

ثانيًا- عدم تخصيص الآيات العامة:

عندما تأتي الآيات لتصفَ حادثةً معيَّنةً فلا يجوز تعميمُ هذه الآيات، في ظلِّ وجود آيات من ذوات الطبيعة التشريعية العامة. فمثلاً، لا يجوز ترك آيات تشريع القتال النازلةِ في سورة البقرة وهي عامَّةٌ، وتعميم آيةٍ نزلت في القتال أيضًا ولكن بشكلٍ مُخصَّصٍ لحادثةٍ مُحدَّدةٍ حدثتْ في زمانِ رسولِ اللهِ (صلوات ربي وسلامه عليه)، كما في سورة التوبة – التي سنتناولها لاحقًا بالتفصيل-. وكمثلٍ آخر نجد أنَّ القرآن -غالبًا- عندما يتكلّم عن الأنبياء وأقوامِهم فإنَّهُ يأتي بآياتٍ تتكلَّم عن قواعدَ عامَّةٍ تنطبقُ على كلِّ البشرِ، بمن فيهم قوم النبي في تلك القصة، ومن ثم

ينتقل إلى آيةٍ خاصة، ومثال ذلك قوله تعالى: (**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**) ﴿الأعراف:١٤٥-١٤٨﴾ حيث نلاحظ أن الآيتين (١٤٦،١٤٧)، وبالرغم من إنَّهما تتكلمان عن قوم موسى إلَّا أنهما تنطبقان على كل الأزمان والأقوام. فهي آيات عامة أتت ضمن قصة سيدنا موسى، في حين أنَّ الآيتين (١٤٥، ١٤٩) خاصتان بحوادث قوم سيدنا موسى.

ثالثًا- عدم إهمال الاستثناء والجمل الشرطية:

فبعض الآيات ترد بشكل عام، ولكن الآية التي تليها تستثني بعضًا من العام الذي ورد في الآية السابقة؛ لذا لا يجوز سرد الآية الأولى

وترك الثانية، لأنَّ هذا يعتبر تحريفًا واضحًا لكلام الله ومقصده. مثلاً، عدم ولاية الكافرين أو غيرهم الواردة في سورة الممتحنة التي ذكرناها سابقًا فيها استثناء خاص بمن لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم، إذا لم نذكر هذا الاستثناء فإننا نحرف المعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى وهذا ما فعله المقدسي.

رابعًا- القرآنُ محفوظٌ ولا يقدَّم عليه غيرُ المحفوظ:

وهذه نقطة مهمةٌ جدًا، وكما معلوم لدى الجميع أنَّ كتب الحديث والسيرة التي وصلت إلينا تعود إلى ما يقرب من مائتي عام بعد وفاة سيّدنا محمّد، وفيها الضعيف والموضوع والصحيح والحسن، وبغضِّ النظر عن درجة الحديث يجب ألّا يتم التصديق به، إن كان يُخالف قواعد القرآن الكريم ومقاصده، لأنه ليس من المعقول أن يتعارض القرآن مع حديث الرسول. وبما أن القرآن محفوظ فلا بد أن يكون الحديث قد دخل فيه ما دخل.

خامسًا- المقصد العام للقرآن الكريم:

يجب ألّا تفسر الآيات بما يخالف منهج القرآن الكريم العام ومقاصده، فالله تعالى لم يرسل رسوله ذباحًا ولم يطالبه بقتل الناس على الشبهة.

وكل تفسير يرى ذلك فهو تفسير شيطاني، بلا ريب.

ولا يوجد ما يسمى قرآن مدني وقرآن مكي من حيث اختلاف مقاصد القرآن الكلية، كما يروج بعضهم، على اعتبار أن الآيات النازلة في مكة أكثر رحمة من الآيات النازلة في المدينة. فهذا الكذب لا أصل له، فكل آيات القرآن متعاضدة ومشيرة للمقصد والغاية ذاتهما.

وهذه النقاط الخمس تُمثّلُ الأساس الأكثر قربًا للمنطق، الذي يُمكِّننا من الوصول إلى مقصد الله تعالى وغايته.

والآن حان الوقت لاستعراض الآيات الكريمة الخاصة بالقتال – التي غالبًا ما تُقتطع من سياقها– واعتقد جازمًا، أنَّ بعضهم سيظن أنني ربما غفلتُ عن بعض الآيات، لأنهُ سيجد مبادئ مخالفةً للجهاد القتالي الذي تعوّد أنْ يسمعه.

شرَّعَ اللهُ القتالَ للمسلمينَ في المدينة المنوّرة وهو للمسلمين كره، كما بيّن اللهُ تعالى بقولهِ تعالى: (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) ﴿البقرة:٥٤﴾. ونزلت آيات تشريع

القتال في سورة البقرة «آيات عامة»، لتبيِّن مبدأ القتال حتى قيام الساعة. ولا مناص من تطبيق هذه الآية في جميع حروب المسلمين، وهي قوله تعالى: (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ، وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) ﴿البقرة: ١٩٠-١٩٥﴾ وهذه الآيات المباركة – وحدها – كفيلةٌ بهدم كلِّ ما كتبه التكفيريون والمتطرِفون الذين -غالبًا – ما يكتفون بقوله تعالى: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم)!!!!

أتمنى أنْ تقرأ الآيات مرةً ثانيةً وثالثة بتركيزٍ، لترى أنَّ الآيات توضِّح أنَّ القتال يكون للمعتدي المقاتل فقط ولا يجوز للمسلم أنْ يعتدي،

كما أنَّ الآية التي تليها: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم» معطوفةً على قولهِ تعالى: «وأخرِجوهم من حيث أخرجوكم» بما يعني أن القتل مخصوص بمن أخرج المسلمين من ديارهم. فالقضيَّةُ ليست مطلقةً ليأتي بعض المتطرفين ليفجر أو يذبح الناس كيفما يهوى، ويلقي بنفسه والآخرين إلى التهلكة. علمًا بأنَّ هذا القتال في سبيل الله وليس في سبيل سلطان زائلٍ أو دولةٍ، والقتال في سبيل الله هو قتال الدفاع عن النفس، و القتال في سبيل المستضعفين حتى لا تكون فتنة وليس لإيجاد فتنةٍ يقتل فيها المسلم على الشبهةِ، وغير المسلم على العقيدة، ويقتل فيها مَن له رأيٌ سياسيٌّ مُخالفٌ للمقدسيِّ، وكل منتسبي الشرطة والجيش لأنهم يقفون بالضد من إقامة الدولة الإسلامية المزعومة.

هذه هي القاعدة العامة الشاملة لكل المعارك، التي ينبغي للجيوش الإسلامية أو التي تدَّعي نسبتَها للإسلام أن تتبعها في حروبها، ويجب علينا ألّا ننسى أنَّ المسلمين – بوصفهم أمَّةً واحدةً كما قرر الإسلام – يجب أن يهبُّوا لنصرة المظلومين من المسلمين أو غيرهم إذا تعرَّضوا لأذىً أو اضطهادٍ بهدف رفع ذلك الظلم عنهم وليس بهدف السلطة أو فرض نظامٍ تكفيريٍّ من القرون الوسطى بذريعة

تطبيق الإسلام، وكما يجب على جماعة المسلمين أن تبدأ بنفسها فلا يجوز أن تطالب بحرية الآخرين، وهي تقبع تحت نير الاستعباد فتكون مطالباتهم من لغو الحديث، ويعتبر مثل هذا التدخل في حال توافر شروطهِ واجبًا شرعيًّا تطبيقًا لقوله تعالى: (**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا، الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**) ﴿النساء:٧٥-٧٦﴾، حيث تبيَّن هذه الآية الكريمة أنَّ القتال يكون في سبيل الله والمستضعفين في الأرض الذين تم إخراجهم من أرضهم كفلسطين مثلاً حتى يتم إيجاد حلٍّ عادلٍ ومنصفٍ للناس، وليس في سبيل الطائفة أو الحكم كما يحدث في بلداننا العربية، وإن كانت المطالبة بإسقاط الدكتاتور تدخل ضمن هذه الآية، ولكن يجب أن تكون خالصةً لله وليست بحثًا عن السلطة ويجب عدم الاعتداء على الناس الآمنين، وإنَّما فقط على المقاتل المعتدي حصرًا، وهذا واضح في قوله تعالى: (**لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ**

لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ﴿الممتحنة:٨-٩﴾، فآيات القرآن الكريم تتضافر، وبشكلٍ كاملٍ على مقاتلةِ المقاتل المعتدي، والبر والقسط بمن لم يعتد، وللأسف نجد من المتطرفين يقتلون الناس ظلمًا وعدوانًا بذريعة أنَّهم ينتمون إلى المنطقة المعيَّنة، أو الطائفة المعيّنة، معتقدين أنهم يطبقون قوله تعالى الذي يطالبهم بقتال المشركين كافة: (**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)** ﴿التوبة:٣٦﴾، وبالطبع وكالعادة فهم يقتطعون جزءًا من الآية ويتركون الجزء الآخر الذي يقول كما يقاتلونكم كافة**!!!** إذن هذه الآية أيضًا تتضافر مع بقية الآيات الكريمة التي تُحدِّدُ قتالَ المقاتل حصرًا. وكذلك يستخدم التكفيريون قوله تعالى: (**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي**

سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) ﴿ النساء:٨٩﴾، ومرةً ثانيةً حتى نفهم المقصود القرآني يجب أن نقرأ وبتدبُّر كاملٍ السورةَ، ولا يجوز الاقتطاع، لأنَّ مَن يقتطع الآية من السورة سيظن أنَّها عامة في الكافرين وهذا لا يستقيم مع منهج القرآن الكريم، والمتدبر في سورة النساء يعرف أنَّ هذه الآية ليست مطلقةً، فبمجرد الاطلاع على الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: **(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً)** يكتشف أنَّها خاصة بالمنافقين، فأنْ توقف عند هذا الحد سيعتقد أنَّها تشمل جميع المنافقين، ولكن لو تدبر في الآيتين التاليتين، في قوله تعالى: **(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً، سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَـٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ**

عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا) ﴿النساء: ٩٠-٩١﴾، سيكتشف وبوضوح أنَّ الآية تستثني مَن لم يقاتل المسلمين منهم، ومن التجأ إلى قومٍ بينهم وبين المسلمين عهدٌ أو ميثاق؛ فهؤلاء توجب الآية الكريمة على المسلمين عدم قتالهم إلَّا في حالة رجوعهم إلى قتال المسلمين، إذن هذه الآية – بحمد الله – تتضافر مع بقية الآيات في حصر القتال بالمعتدي المقاتل.

ويجب الإشارة أيضًا إلى أنَّ الولاء المنهي عنه في القرآن الكريم هو ولاء الكافرين المعتدين، أمَّا غيرهم فيجب على المسلمين برُّهم وقسطهم مع نقاشهم، وتبيان عدم صحَّةِ ما يذهبون إليه في الاعتقاد، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فنحن لسنا وكلاء الله لنحكم على هذا بالنار وعلى ذاك بالجنة. وإلا فما قيمة وجود يوم حساب يرد الناس إليه؟

قد يستدلُّ شخصٌ بقصة سيدنا سليمان مع بلقيس وقومها ويقول: إنَّ هذه القصة القرآنية دليلٌ واضحٌ على قتال الأنبياء الأمم غير المسلمة على العقيدة، ويأتي بقوله تعالى: **(إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)** ﴿النمل: ٣٠-٣١﴾، وكالعادة حتى نفهم الهدف القرآني يجب علينا ألّا نتسرع في الحكم،

وأن نجمع الآيات ذات العلاقة، فنجد في قوله تعالى في السورة نفسها: **(إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)** ﴿النمل: ٢٣-٢٤﴾، وعندما أرسلت بلقيس هدية سليمان كان جواب سيدنا سليمان هو الآتي: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ، قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ ﴿النمل: ٣٦-٣٧﴾.

المتدبِّر لهذه الآيات الكريمة سيلاحظ أنَّ هناك فرقًا بين «أسلموا الله رب العالمين» و»أتوني مسلمين.» وكذلك من المفروض أن يقف طويلاً عند عبارة «امرأة تملكهم»، و «أتوني مسلمين»، يعني استسلموا لي. وهذه من دقة القرآن الكريم فهنا الإسلام ليس لله رب العالمين وإنَّما لسليمان، ونجد هذه الدقة القرآنية العجيبة في كل القرآن الكريم وكمثلٍ عليها قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا)** ﴿النساء: ٤٨﴾، فأضاف

الإشراك إلى ذاته سبحانه الذي يشابه قوله تعالى: (**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**) ﴿لقمان:١٣﴾، فلم يجعل الشركَ نكرةً وإنَّما إضافة إلى اسم الجلالة ليتبيَّن المقصود بالشرك وهو الإشراك بالله (شرك الألوهية)، ولكن نلاحظ في سورة الأنعام، أن الإشراك ليس بمعنى الإشراك بالله وإنَّما الإشراك في مصادر التشريع (شرك ربوبية)، حيث يقول تعالى (**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**) ﴿الأنعام١٢١﴾، وكذلك الإشراك يأتي بمعنى الإشراك في العمل (شرك الربوبية) كقوله تعالى: (**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) ﴿إبراهيم:٢٢﴾.

إذن يجب أنْ نفهم معنى الإشراك المقصود به من سياق الآية الكريمة، وكذا بالنسبة «لأسلموا»، ففرقٌ كبيرٌ بين أن يُسلِم الشخصُ للهِ وأن يُسلِم لسيدنا سليمان ولا سبيل للمشابهة بين الاثنين مطلقًا، فسيدنا سليمان

– حاشاه – أن يجبر أحدًا على اعتناق الدين بدون اقتناع، ولذلك يبادر إلى جلبِ دليلٍ مقنعٍ للسيدة بلقيس حتى يُثبت صحَّةَ ادعائهِ، ومَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر، ولكن قد يتبادر إلى الذهن لماذا يدعوهم ليُسلموا له إن لم يكن هدفهُ إجبارُهم على الإيمان والعقيدة؟ والجوابَ هو في كلمة «تملكهم» الواردة في الآية رقم ٢٣ من سورة النمل، وهنا فرقٌ كبيرٌ عن كلمة «تحكمهم» فموقف سليمان هنا لا يختلف عن موقف جميع الأنبياء والمرسلين برفض الاستعباد والظلم، وهو يشابهُ إلى حدٍّ كبيرٍ طلب سيدنا موسى من فرعون أن يُطلق معه بني إسرائيل، أما أن يؤمن بنو إسرائيل أو يكفروا فليست مسؤولية موسى، وأقصى مسؤولية له هو دعوتهم إلى الله عن طريق التبشير والإنذار، وقد أثبتت الأحداث أنَّ بعضَهم كفرَ وعبدَ العجلَ، وبالتالي فإنَّ طلبَ إخراجِهم لم يكن بسببِ كونهم مؤمنين من الطراز الفريد وشعب الله المختار، وإنَّما تخليصًا لهم من جبروت فرعون. السؤال الأهم بعد كل هذا: هل هناك مبررٌ لمن يقول إنَّ الإسلام أو الأنبياء يبررون القتال على العقيدة؟؟ وسيكون جواب بعض الناس هو أنَّ سورة التوبة شرعت ذلك. ولذا سنتناول سورة التوبة المباركة بتفصيلٍ دقيقٍ في السطور

القادمة، ويجب أن نفهم مُقدَّمًا أنَّ سورة التوبة مخصوصةٌ بحادثةٍ معيَّنةٍ ولا يجوز تعميمها، وبوجود آيات تشريع القتال في سورة البقرة وهي آيات عامة، فيجب علينا أن لا نُعمِّم الخاصَّ ونخصِّصَ العام. وإنَّما نتّبع العام، والخاص يُتَّبع فقط في مكانه المخصص، ولا يجوز لأي أحد أن يحرفَ الكلمَ عن موضعهِ ليُلائم هواهُ وكأنَّهُ يفرضُ على المسلمينَ وعلى الله اعتقادهُ، (**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) ﴿الحجرات: ١٦﴾.

(٣-١) سورة التوبة:

أكثر سورة تمَّ تحريفُ معناها في القرآن الكريم هي سورة التوبة، للأسف الشديد، وقد أهمل كلُّ ما فيها، وتم التركيز على بضعة آياتٍ من قبل المتطرِّفين، مثل قوله تعالى في سورة التوبة: (**فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) ﴿٥﴾ وكذلك: (**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**) ﴿١٤﴾، وكذلك قوله تعالى: (**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا**

حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) ﴿٢٩﴾.

سورة التوبة نزلت في أواخر حياة الرسول وبعد العودة من غزوة تبوك. وللأسف، بالرغم من الشواهد الكثيرة في هذه السورة التي تثبت خصوصيتها إلَّا إنَّ الكثير من المسلمين، يريدون جعل هذه السورة أساسًا لحروب المسلمين وقتالهم المشركين قاطبةً وتخييرُهم بين القتلِ والإسلامِ. وقتال أهل الكتاب قاطبةً وتخييرهم ما بين الإسلامِ أو الجزية أو القتل، متجاوزين العديد من الآيات القرآنية المباركة، وعلى رأسها، آيات تشريع القتال الواضحة للمسلمين في سورة البقرة، التي تفرض على المسلمين قتال المعتدي المقاتل فقط، والآيات التي تفرض على المسلمين برَّ مَن يُخالفهم ما داموا لا يقاتلونهم ولم يخرجوهم من ديارهم، وآية «لا إكراه في الدين» وغيرها الكثير من الآيات التي لا يمكن بكل حالٍ من الأحوال نسخها بسورة، واضح وضوحَ الشَّمس إنَّها مخصوصةٌ. أمَّا دلائل خصوصيَّتها فهي:

أولاً - إرسال مبعوثٍ نبويٍّ خاصٍ إلى مكة لإبلاغِ الناسِ، ولو كانت عامة لما كان هناك مبررٌ لإرسالِ مبعوثٍ بدليلِ قوله تعالى في أول

آيةٍ من سورة التوبة: (**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**)، حيث إن البراءة مخصوصةٌ بمَن تمَّت مُعاهدتهم من المشركين، ونقضوا العهد بعد ذلك، لوجود آية تستثني المشركين الذين لم ينقضوا العهد.

ثانيًا- مهلة الأشهر الأربعة الممنوحة للمعاهدين، من المشركين ومن أهل الكتاب والمنافقين المتذبذبين. وهذه وحدها كافية لإبطال عمومية سورة التوبة لكل مكان وزمان بدليل قوله تعالى: (**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ**) ﴿التوبة: ٢﴾.

ثالثًا- استثناء المشركين الذي أوفوا بعهدهم إلى رسول الله. وهذه أيضا، وحدها كافية لإبطال عموميَّةِ سورة التوبة لكل زمان ومكان بدليلِ قولهِ تعالى في سورة التوبة: (**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**) ﴿التوبة: ٤﴾.

رابعًا- عدم قتال المشرك غير المقاتل. بل وأكثر من ذلك، وجوب إيوائهِ وإسماعهِ كلامَ اللهِ ثم إبلاغهِ مأمنهُ سواءً آمنَ أم لم يؤمن، وليس

قتله كما يدّعي مَن يحرِّفون الكلمَ عن مواضعهِ بدليل قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿التوبة: ٦﴾.

خامسًا- إنَّ آيات القرآن الكريم الخاصَّةِ بالقتالِ- وكما بيَّنّا سابقًا- تتضافرُ في جعل قتال المسلمين لغيرهم محصورًا بأمرينِ لا ثالثَ لهما وهما: دفاعًا عن النفس، ودفاعًا عن المظلومين. وعليه فإن الإيمان بأن سورة التوبة، وبالرغم من خصوصيتها للأسباب الأربعة التي ذكرناها أعلاه، تنسخ كل آيات القرآن الخاصة بالقتال، تستلزم الإيمان بأنها تنسخ سنَّة الله في أنبيائه السابقين، وملَّة سيدنا محمدٍ منذ أن بُعِثَ حتى عودته من غزوة تبوك، والقول بذلك أيضًا يقتضي بالضرورة نسخ العشرات من آيات القرآن التي تصرِّح أنَّ وظيفة الرسول المصطفى هي التبشير والإنذار والشهادة، وأنَّه ليس على المشركين بمسيطر أو حفيظ أو وكيل، وكذلك يقتضي أنَّ الله وكَّل المسلمين بالقصاص والحكم على الكافرين بخلاف سنَّة الله في الأنبياء، إذ لم يعاقب الله المشركين على يد نبيٍّ قط، وإنَّما كان العقاب مباشرًا من الله؛ لأنَّه الحكم العدل، وفي الوقت الذي يختاره الله تعالى كما في قصص لوط وهود وصالح

وغيرهم من الأنبياء. وكذلك فإن القول بالنسخ يقتضي نسخ الآيات المشابهة لقوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) ﴿الحج:١٧﴾ وهكذا تكون النتيجة: علينا أنْ نُعطِّلَ تسعين بالمائة من القرآن لنقتل المشركين الذي منحهم الله حق الاختيار، وهو يسمع كفرهم وإلحادهم ولو شاء لأسكتهم وذلك ليس على الله بكبير. ونتيجةً لكلِّ ما سبق نصلُ إلى حقيقةٍ مفادها أنَّ هذا أمرٌ لا يستقيمُ مع القرآن الكريم ولا يستقيم مع سنة الله في خلقه، وإنَّما يستقيم مع منهج إبليس ورغباته وهذه الرغبات كوَّنت نبتة التكفير التي قتلت المسلمين قبل غيرهم.

متدبِّر سورة التوبة، وهو يتبع القرآن الكريم وملّة الأنبياء الكرام سيجد أنَّ هذه السورة المباركة تستهدف ما يلي:

أوَّلاً- المشركين الذين وقَّعوا العهود والمواثيق ثم نقضوها، ويشكِّلون تهديدًا للمجتمع الإسلامي الناشئ، ويجب وضع حدٍّ لهم. ولذا جاءت الآيات تُحفِّزُ المسلمينَ على قتال المقاتلين منهم، وتستثني مَن حافظَ منهم على العهود والمواثيق وتستثني من استجار منهم بالمسلمين

حتى يسمع كلام الله، وأوجب على المسلم أنْ يبلغَهُ مأمنَهُ. وهذا عهدٌ الله على المسلمين بعدم قتل المشركين إن استجاروا بهم لأنهم ليسوا مقاتلين معتدين، وأساس تشريع القتال عند المسلمين هو قتالُ دفاعٍ ضد المعتدي المقاتل. فهؤلاء المشركين المطلوبِ قتالُهم ليسوا مجرَّد أناسًا عاديين يعيشون حياتهم اليومية بشكلٍ طبيعيٍّ، وإنَّما هم مجموعةٌ من الغَادرين العاملين بكلِّ طاقتِهم على حرب المسلمين، حتى بلغ بهم الأمر أن همُّوا بتهجيرِ الرَّسول ظلمًا كما تصفُهم الآيات التالية: (**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ، اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ، أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) ﴿التوبة: ٨-١٣﴾وبالتالي فإنّ مَن يُطالب فقهاءَ المسلمين

بمعاملةِ كافةِ المشركين بطريقةٍ واحدةٍ فهو يريد القول: إنَّ هذا الوصفَ المُفصَّلَ في القرآن مجرّد حشوٍ وكلامٍ لا قيمة له، لأنَّ الله يقصدُ كلَّ المشركينَ مهما كانت أوصافهم وتصرُّفاتهم تجاه المسلمين!

ثانيًا- ثمة أمرٌ إلهيٌّ واضحٌ بألّا يحجَّ المشركون إلى البيت الحرام بعد هذه السنة: (**يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) ﴿التوبة: ٢٨﴾، وهنا قد يتساءل المؤمنُ الفطن إذا كان الأمر الإلهي حقًا كما يدَّعي بعضهم بإبادةِ المشركين عن بكرةِ أبيهم وقتلِهم أينما وجدوا، فما الهدف من إصدار أمرٍ بمنعِهم من الحج إلى الكعبة؟ وهنا نحن أمام خيارين فإمَّا أنْ نقول: إنَّ الله تعالى يعرفُ أنَّ أمرَهُ لن يُنفَّذَ وأصدرهُ عبثًا -حاشاه-، وإمَّا أن نذهبَ مع الواضح من سياق كلام رب العالمين، بأنَّ أمرَ القتالِ خاصٌ بالمشركين الذين ذكرنا أوصافهم في النقطة السابقة. أمَّا بالنسبة للمشركين غير المعتدين وغير المقاتلين الذين لا يجوز قتالهم أو قتلهم، فينطبق عليهم أمر المنع من الحج إلى الكعبة باعتبارها ملكيَّة إسلاميَّةً مقدَّسةً.

ثالثًا- قوله تعالى: (**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**) ﴿التوبة: ٢٩﴾ وهذه الآية أيضًا أُسيءَ تفسيرُها، واليوم يُقتلُ بسببِها المسيحيون ظلمًا وعدوانًا في سوريا وباكستان، من قبل بعض المتطرفين، ومن المضحك أنَّ هؤلاء ينتقدون الصهاينة على قتلِهم المسلمينَ وتهجيرهم وهم يفعلون الشيء نفسه! بالضبط كما ينتقد المقدسيُّ تصرّفات نمرود وفرعون مع الرسل وهو يدعو أتباعَهُ إلى تطبيق أفعالهم نفسها مع مُخالفيه. هذه الآية الكريمة بطبيعة الحال ليست نشازًا عن نهج القرآن الكريم وليست تعطيلاً للكثير من الآيات القرآنية، وإنَّما هي تتضافرُ وتأتي ضمن شرطِ الجهادِ الأساسيِّ الذي عهده الله إلى المسلمين والوارد في قوله تعالى: (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**

رَّحِيمٌ) ﴾البقرة: ١٩٠ -١٩٢ ﴿. ويجب أنْ نعلم أنَّ هذه الآيات نزلت ما بين غزوة تبوك وتجهيز جيش أسامة لقتال الروم، وكل مطَّلعٍ يعلمُ أنَّ غزوة تبوك جاءت بعد فتح مكة المكرمة وتعاظم نفوذ المسلمين، إذ خَطَّطَ الرومان لإنهاء القوة الإسلامية التي أخذت تهدد الكيان الروماني المسيطر على المنطقة، فخرجت جيوش الروم بقوى رومانية وعربية تقدر بأربعين ألف مقاتل قابلها ثلاثون ألفًا من الجيش الإسلامي، ولم يحدث أيُّ صِدَامٍ أو قتال لأنَّ الجيش الروماني تشتَّتَ وتبدَّد في البلاد خوفًا من المواجهة، ممّا رسم تغيّرات عسكريّة مهمة في المنطقة في ذلك الوقت جعلت حلفاء الروم يتخلّون عنها ويحالفون العرب كقوة أولى في المنطقة، أمَّا جيش أسامة فينقل لنا التاريخ أنَّ سبب تجهيزه كان ما بلغ رسولَ الله مِن أنَّ الروم قد قتلت كلَّ مَن دخل الإسلام من أتباعها، ومنهم (فروة بن عمر الجذامي) والي (معان) من قبل الروم، وذلك أنه عندما أسلم أرسل إلى النبي يخبره بذلك، فما كان من الروم إلَّا أن قبضوا عليه، وقتلوه بفلسطين وتركوه مصلوبًا ليرهبوا كلَّ مَن تُحدِّثُهُ نفسهُ بالإسلام. فأمر رسول الله بتجهيز جيش أسامة بن زيد؛

لتوطيد الدفاع عن المظلومين وقتال القوى المعتدية الغاشمة، وكذلك قيل إنَّ تجهيز هذا الجيش ثأرًا لمقتل زيد بن الحارثة وأصحابه الذين استشهدوا معه في غزوة مؤتة. وبالتالي فإن كلا العمليتين العسكريتين، (غزوة تبوك وتجهيز جيش أسامة) تخضعان لشرط الجهاد الأساسي في الإسلام النازل في سورة البقرة، وهو حرب المعتدي المقاتل. وهذا هو حال كل غزوات النبي فحاشا سيدنا الرسول الأكرم محمد أن يُخالف أمر الله والقرآن الكريم، وكنتيجة لذلك فمن الطبيعي أن يطلب الله تعالى من المسلمين في هذه الآية قتال أهل الكتاب، فلم تأتِ هذه الآية لتنسخ جزءًا كبيرًا من القرآن وملَلَ الأنبياء كما يعتقد بعض الباحثين، أمَّا فرضُ الجزيةِ فهي ضريبةٌ مستحقَّةٌ على المعتدي وتعويضًا للمسلمين عن تجهيز الجيش والمسير إلى القتال، وهذا أمر متعارفٌ عليه اليوم كتعويضات تفرض على الدولة المعتدية بعد انتهاء الحرب.

وبهذا أصبح من الواضح لدى كلِّ مُسلمٍ اتساقُ نمطِ القرآن ومللِ الأنبياء، بلا مخالفةٍ وبنفسٍ إنسانيٍ عالٍ، يجعلنا ننحني حبًا وتقديرًا واعتزازًا لإسلامنا الحنيف، وشكرًا وحمدًا لمَن أرسل رسولاً بالهدى

ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ولكن هذا الإظهار ليس بالقتل كما يظن المتعصّبون والمتطرّفون، بل بالحكمة والموعظة الحسنة وبإنسانية هذا الدين ومعقوليته وتناسبه مع الفطرة السليمة للإنسان. وبهذا، أصبح من الواضح لدى كل مسلم أنَّ ما يدعو إليه المتطرِّفون التكفيريون إنَّما هو دعوة إبليس وزرعه الذي يحاول عن طريقه التشويش على زرع الله ودينه الحق ولكن يأبى الله إلَّا أنْ يتمَّ نوره ولو كره التكفيريون. والجهاد المفروض اليوم على المسلمين فرضَ عينٍ، هو الجهاد ضدَّ مَن اعتدى على مفاهيم القرآن وحرَّف الكلمَ عن مواضعهِ وقتلَ المسلمين قبل غيرهم بسياراتهم المفخخة، وقد جعل الانتحاريون القتلة - ظلمًا وعدوانًا- قتلَ المسلمِ على الشبهة والظن، أمرًا مفروغًا منه لأجلِ السُّلطة والحكم، فإنْ كان من أهل الله يتولّاه الله برحمته وإنْ كان من أهل الشيطان فقد خلصت الأمَّةُ منه، كما يدَّعون كذبًا وتضليلاً للشباب المسلمين. فإنْ كان المقتولُ من أهل الله فأين أنتم أيها التكفيريون من قوله تعالى: (**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ**

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) ﴿النساء: ٩٣﴾؟؟ وإنْ كان من أهل الشيطان، فأين أنتم أيَّها التكفيريون من قول رسول الله : «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَن يعبدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشرِكُ به شيئًا»؟ ولا أعرف كيف تساوي بين المسلم والمجرم وتقتلهم معًا وأنت تقرأ قوله تعالى: **(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ، أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ، سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ، يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)** ﴿القلم: ٣٥ – ٤٢﴾.

(٤) المسلم والتكفيري
ونظرتهما إلى الناس:

من أهم مظاهر الغلو في دين الله واتباع خطوات الشيطان، هو الحقد والكره الذي يمتلئ به قلب المتطرِّف تجاه الآخرين، فلو وجد أيٌّ شخصٍ منّا في قلبه حقدًا لمجموعةٍ من الناس أو حقدًا على شخصٍ معينٍ فقط لأنَّه ينتمي إلى جماعة معيَّنةٍ، فلْيعلم أنَّ في قلبه غلوًّا، والسبب في ذلك أنَّ كلَّ إنسانٍ عبارةٌ عن كيانٍ مستقلٍّ بذاتهِ وإنْ انتمى إلى جماعةٍ معيَّنةٍ بالإيمانِ أو بالفكرِ أو بالنظرة السياسية، فلا يعني هذا أنَّهُ يشبهُ تمامًا بقية أفراد الجماعة. وإنَّما لكل إنسانٍ خصوصيَّتهُ التي

تكوَّنت نتيجةً لمجموعةٍ من العواملِ، وهذه العوامل لا يعلمها إلَّا الله تعالى. ومنها على سبيل المثال لا الحصر، مكان مولده الجغرافي، الوضع العائلي، الوضع الصحي، الوضع المالي، مستوى الذكاء، وهكذا، فالكثير الكثير من العوامل تؤثر في تكوينه النفسي والفكري، وبما أنّه لا أحد من البشر يمكنهُ الإحاطة بهذه العوامل فقد جعل الله سبحانه الحكمَ على الآخرين محصورًا به، ولم يعطِ لأيِّ شخصٍ وكالةً، بما في ذلك الرسل.

نظرةُ التكفيريِّ والمتطرّفِ إلى كلِّ مَن يُخالفهُ، نظرةٌ دونيَّةٌ وهو يظنُّ – لأنَّهُ ولد مسلمًا – بأنَّ الله قد اجتباهُ من دون الآخرين، وإنَّه انتمى إلى نادي أحبابِ الله. وهذا يُخالفُ نظرةَ القرآن الكريم جملةً وتفصيلاً، وكذلك ملّة الأنبياء الذين حرصوا أشدَّ الحرصِ على هداية الناس واحترام خياراتهم، وإن كانت خاطئة. وبناءً على هذه النظرة، تجد القرآن يحمل بين طيّاته تصنيفًا إنسانيًّا وعقلانيًّا بعيدًا بُعدَ الثرى عن الثريّا من تصنيفِ المُتطرِّفين. إذ إنَّ المُتدبِّرَ في آيات القرآن الكريم قد يجد للناس حسب نفسياتهم ومعتقداتهم وظروفهم، تصنيفًا مشابهًا للآتي:

أوَّلاً– المستضعفون في الأرض، وهم أناس لم يتمكّنوا من الوصول إلى

الحق أو لم يطلعوا على أيِّ دينٍ سماويٍّ في الأصل، نتيجة لظروفهم المعيشية، كمكان الولادة أو حالتهم النفسيّة أو الصحيّة أوغيرها الكثير من العوامل. وهؤلاء عسى الله أنْ يغفر لهم، ونجد هذا في قوله تعالى: **(إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُولَـٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا)** ﴿النساء: ٩٨-٩٩﴾، وقد نجد ضمن المسلمين كذلك، أناسًا مستضعفين ممَّن لديهم عقائد منحرفة.

ثانيًا- المتكبّرون والمكذّبون والمنافقون والمشركون، أمَّا المتكبّرون، وهم الكافرون حقًا لأنَّهم عرفوا الحق ولم ينكروه، ولكن رفضوا اتّباعه. وهؤلاء نجدهم في قوله تعالى: **(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)** ﴿الأعراف:١٤٦﴾، ونجد وصفهم الدقيق في قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (*) أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا**

مُّهِينًا) ﴿النساء: ١٥٠-١٥١﴾.

وأمَّا المكذِّبون، فهم أناس كذَّبوا الآيات ولم يستمعوا لها، وهؤلاء نجدهم في قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** ﴿الأعراف:١٤٧﴾، وهناك فرقٌ يجب الانتباه إليه بين المتكبّر كإبليس الذي لم ينكر الله والآخرة ولكن رفض اتباع أوامره، وبين مَن كذّب بكل آيات الله ولقاء الآخرة، فالمكذِّب تقريبًا هو الملحد غير المستضعف في وقتنا الحاضر الذي ينطبق عليه أيضًا قوله تعالى: (**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)** ﴿الجاثية: ٢٤﴾.

وأمَّا المنافقون، فهم الانتهازيون والمخادعون الذي تُحرِّكهم مصالحُهم الذين عبَّر عنهم القرآن الكريم بأنَّ في قلوبهم مرض.

ثالثًا- الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا: وهؤلاء هم الذين ورثوا الأديان وآمنوا بها ونزلت فيهم آيتان مدنيتان متشابهتان. وكما هو معروف في اللغة العربية فإنَّ التكرار أحد أساليب التوكيد، والآيتان هما قوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ**

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ﴿البقرة:٦٢﴾، وقوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)** ﴿المائدة:٦٩﴾. ويجب الإشارة إلى أنَّ ابن كثير «رحمه الله» في تفسيره اشترط دخول أصحاب الديانات المذكورة أعلاه في الإسلام، حتى تنطبق عليهم الآيتان. وهذا الشرط لا أجده في هاتين الآيتين، وقد يكون سببُ قول ابن كثير هذا هو قوله تعالى: (ومَن يتبغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه) أو قوله تعالى: (إنَّ الدين عند الله الإسلام) وسنناقش هاتين الآيتين لاحقًا.

رابعًا- الذين اتبعوا سيدنا محمدًا، وهؤلاء يصفهم القرآن غالبًا بـ»الذين آمنوا» و»المؤمنون» بخلاف اللقب المتعارف عليه اليوم وهو لقب «المسلمون». ومن صفات هؤلاء الأساسية، ما ورد في قوله تعالى: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)** ﴿الأنفال:٢-٤﴾، وكذلك قوله تعالى: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا**

اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ﴿النور:٦٢﴾، وكذلك قوله تعالى: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)** ﴿الحجرات:١٥﴾ .

خامسًا- المفسدون في الأرض: وهؤلاء قد ينتمون إلى أيّة جماعةٍ من الجماعات أعلاه، وقد يكونون منافقين أو متكبرين أو مسلمين، وأخطرهم هو مَن ينتمي إلى الإسلام لأنه يقتل ويذبح ويفسد باسم اللهِ ويصدُّ عن سبيل الله بأفعاله، وقد يستغله المنافقون والمتكبّرون مطيةً لتحقيق أهدافهم. وميزةُ المُفسدينَ في الأرض أنَّ تصنيفهم قد أتى بسبب أفعالهم، وليس بسبب نوع الاعتقاد الذي يتّبعونه، ونجدهم في قوله تعالى: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ)** ﴿البقرة: ١١-١٣﴾.

سادسًا- الفئة التي رفضت الدين لغلظة وفظاظة من يدعي تمثيله من التكفيرين الخوارج، مصداقًا لقوله تعالى : **(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ)** ﴿آل عمران: ١٥٩﴾.

التصنيف أعلاه ليس تصنيفًا شاملاً ولا حصريًا، وهدفه طرح بعض الأمثلة ليتسنى للقارئ الكريم معرفة أنَّ الله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى الناس على أساس العقيدة كما يعتقد التكفيريون، وإنَّما هناك الكثير من المعايير والضوابط والظروف التي لا يمكن لأيِّ إنسان حصرها، وبالتالي لا يمكن لأيِّ إنسانٍ الحكمُ على المقابل بأنَّهُ كافرٌ أو مؤمن، بل الحكم لله لا شريك له. فالموضوع ليس بالسهولة التي يصوِّرها الشيطان لأتباعه. كما يجب التركيز على نقطة مهمةٍ، ألا وهي أنَّ مَن صنَّفَ الناس هنا هو خالقُهم اللهُ سبحانه وتعالى، وهو الذي سيحكم ويفصل بينهم، وليس من واجبات المسلم المؤمن بالقرآن الكريم أن يفصل بين الناس على أساس اعتقادهم فيدخل فلان الجنة ويدخل الآخر النار، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: (**الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) ﴿الحج:١٧﴾، فيجب ألّا ينخدع المسلم ويجعل نفسه شريكًا لله في الحكم على الناس، فلا يمكن لأحدٍ أنْ يفرض على الله أنْ يدخل فلانًا الجنة أو يدخله النار فالحكمُ لله وحده، وهو العادل الخبير، مع التأكيد على أنَّ وعدَ الله واضحٌ وحقٌ وبعيدٌ عن العبث، كما بيَّنَهُ لسيدنا موسى في قوله تعالى:

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) ﴿الأعراف: ١٥٦﴾، فعذاب الله يصيب به مَن يشاء ورحمته وسعتْ كلَّ شيءٍ. ولا تظنن أن أحدا خارج رحمة الله، فمع أن هذه الرحمة مكتوبة للمتقين، ومن هم بآيات الله يؤمنون، إلا أنها لا تختص بهم وحدهم. فهي في حقهم مكتوبة وواجبة، وهي لغيرهم جائزة. وبالمقابل، فإن عذاب الله الذي يصيب به من يشاء، يحرمه على المتقين ومن هم بآيات الله يؤمنون. وهذه قمة الرأفة، أن تعم الرحمة، ويخصص العذاب لمستحقيه. وهنا علينا ونحن نقرأ القرآن الكريم أن نفرق بين كلام الله وكلام من هم دون الله؛ فيكون كلام الله هو القاعدة التي تتبع، أمّا كلام غيره تعالى فيجب أن يلاحظ موقف القرآن منه.

كما أنَّ النظرية القرآنية تُشيرُ إلى معيارٍ أساسيٍّ في الحساب إضافةً إلى الإيمان، فالإيمان الذي لا يترجم إلى عمل صالح لا حاجة لله به؛ ولذا القرآن يوضِّحُ وبشكلٍ لا يقبل اللبس أنَّ المسلم وغير المسلم ممتحنٌ، وهذا الامتحان هدفه تمييزُ الخبيثِ من الطيب. لأوضح: قد نجد مسلمًا خبيثًا وقد نجد غير مسلم طيبًا، وهذا نجده قوله تعالى: **(مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ**

الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) ﴿آل عمران:١٧٩﴾، وكذا في قوله تعالى: **(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)** ﴿الأنفال:٣٧﴾. وهذا أمر طبيعيٌّ، ومن العدالة الإلهية ألّا ينجو أحدهم فقط لكونه وُلِدَ لعائلةٍ مسلمةٍ وهو مفسدٌ، ويهلك أحدهم لأَنَّهُ وُلِدَ لعائلةٍ غيرِ مسلمةٍ، وهو مُصلحٌ. كما في قوله تعالى: **(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)** ﴿ص: ٢٨﴾. إنَّ مَن يعتقدُ أَنَّهُ سيدخل الجنة، وأَنَّهُ أفضلُ من الآخرين فقط لأَنَّه مسلم وإنْ قتل أو أفسد أو سفك الدماء أو غشَّ أو خان أو سرق أو زنى أو اغتابَ الآخرين، نقول له: أينَ أنت من قوله تعالى: **(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)** ﴿النساء: ١٢٣﴾.

(٥) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ:

بوصفنا مسلمين، دائمًا نظن أَنَّنا – بصورةٍ أو بأخرى – شعبُ الله المختار، وذلك من خلال اجتزائنا الآية رقم ١٩ من سورة آل عمران: (إِنَّ الدين عند الله الإسلام) ونستخدم هذا الجزء من الآية لطرد الكثير من الناس من الجنة، وكأَنَّ القرآن لم تنزل به غير هذه الآية أو أَنَّ هذه الآية نسخت جميع آيات القرآن الأخرى ذات العلاقة. ابن كثير «رحمه الله» انتبه إلى هذه الآية وكونها تتعارض ظاهريًا مع الآيات التي ذكرناها أعلاه في النقطة الثالثة من التصنيف القرآني[١]، ولنا في هذه

(١) انظر :صفحة ٥٣، من هذا الكتاب.

الآية المباركة الملاحظات الآتية:

أولاً - إنَّ الدين عند الله الإسلام، وبما أنَّ الله لا يحدُّهُ زمانٌ ولا مكان فهذا يعني أنَّ الإسلامَ المقصودَ هو نفسُهُ إسلام الأنبياء وأتباعهم، لأنَّه غيرُ مُحدَّدٍ بزمانٍ بدلالةِ نسبتهِ للهِ، ولم يكن الدين عند الله غير الإسلام في يوم من الأيام وخصوصًا في الأوقات والعصور التي سبقت بعثة سيدنا محمد.

ثانيًا - الإسلام في القرآن الكريم هو دينُ كلِّ مَن اتبعَ الرُّسلَ والأنبياء من سيدنا آدم إلى سيدنا محمّدٍ، فالحواريون كانوا مسلمين وقوم لوط كان فيهم بيتٌ للمسلمين وحتى فرعون قال: أنا من المسلمين، حينما أراد اتّباعَ سيدنا موسى عند الغرق، كما في قوله تعالى: **(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** ﴿ يونس: ٩١﴾، وبما القرآن الكريم يُقرِّرُ وجود الإسلام قبل سيدنا محمد فهذا يعني أنَّ الإسلامَ المقصودَ غيرُ محصورٍ بدعوة سيدنا محمّدٍ (صلوات الله وسلامه عليه).

ثالثًا - مَن سمّانا «المسلمين» هو سيّدنا إبراهيم، وهذا يثبتُ أيضًا أنَّ

الإسلامَ موجودٌ قبل سيدنا محمّد. وهذا لا يتعارض مع كون سيدنا محمد أتى بشريعةٍ وكتابٍ جديدين، ولكن ليس بدينٍ جديدٍ، قال تعالى: (**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ**) ﴿الحج: ٧٨﴾.

رابعًا – الإسلام قرآنيًا نجده في قوله تعالى: (**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**) ﴿النساء: ١٢٥﴾، وبالتأكيد ليس هناك أحسن من أن يدين الإنسان بدين اللهِ، وهو أنْ يُسلِمَ أمرهُ للهِ وهو محسنٌ، وكذلك قوله تعالى: (**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**) ﴿آل عمران: ٨٣﴾، وهذه الآية المباركة تؤكِّد أنَّ دينَ الله – وهو الإسلام – موجودٌ منذ خَلَق الله مَن في السموات والأرض، وهو ليس محصورًا بشريعةِ سيّدنا محمّدٍ (صلوات ربي وسلامه عليه) إلَّا إذا كان كلُّ مَن خلقَهم الله في السماوات والأرض لم يسلم أحد منهم قبل البعثة النبوية!

خامسًا- الاتباع هو العملُ بكلامِ المُتَّبعِ والاقتداءُ به، والابتغاء هو طلبُ الشيءِ والرغبة فيه، وهكذا يجب أنْ نفهم قوله تعالى:(**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**)

﴿آل عمران: ٨٥﴾.

وهذه نبذةٌ مختصرةُ عن النظرة القرآنية للإسلام، ولا أريد التوسُّع فيها لأنَّ موضوع الكتاب هو الفكر التكفيري وقد تكون لنا عودةٌ لاحقًا لهذا الموضوع في كتابٍ مستقلٍّ.

الخاتمة:

أتمنى أنْ يكون القارئُ قد استفاد من الرحلة القرآنية التي استعرضها الكتابُ، وأتمنى منه أنْ يتدبَّر القرآنَ أكثر، ففي صفحاته السعادة والاطمئنان بعيدًا عن الحقد واللؤم الذي يعيش به خوارج العصر. الإسلام هو دين الله وكل ما يصدر عن اللهِ جميلٌ ورحيمٌ وعادلٌ، أمَّا الإسلام الذي يصدرهُ التكفيريونَ هو إسلامٌ شريرٌ لا حياةَ له، ومصيرهُ الموتُ سواءً انتصروا في مساعيهم لإقامةِ دولةٍ تكفيريةٍ أم لم ينتصروا. وعلى المسلمين أنْ يختاروا بين أن يتخذوا موقف المتفرِّج وإسلامُهم يُذبَحُ من الوريد إلى الوريد، أو أنْ يتّخذوا موقفًا يجعلُ الحدَّ واضحًا وفاصلاً أمامَ اللهِ والناس جميعًا بين الإسلام الأصيل والتطرُّف. بالتضييقُ عللا التكفيريين، ومجابهةَ الحجة بالحجة. والحمد لله

فحجة القرآن قائمةٌ وراسخةٌ في الأرض.

كما أنَّ من واجبنا كمسلمين التواضع أمام الله والناس، وأنْ نعلمَ أنَّنا في امتحانٍ مستمرٍّ لا ينتهي بمجرَّد تأدية الصلوات الخمسة والصيام والزكاة، فالشيطان قد يأتيه من هذا الباب؛ ولذا عليه ألّا يتكبَّر وألّا يمشيَ في الأرض مرحًا، وألّا يصعر خدَّهُ للناسِ، أو أن يفتخر بعبادته وإسلامه. لأنَّ المتطرِّفينَ الذين يظنُّونَ أنَّهم يعلمون، وأنّ غيرهم مجرَّدَ كفرةٍ سفهاءَ يستحقُون القتلَ لا يسيرونَ على سنَّةِ الأنبياء، مع أنهم - كمتطرفين - في حقيقة الأمر لا يعلمون، كما وصفهم الله تعالى بقوله: (**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) ﴿البقرة: ١١٣﴾.

في النهاية لا بدَّ من التأكيد على أنَّ هذا الكتاب يتحدّى كل أئمةِ الجماعاتِ التكفيريَّة، وعلى رأسهم المقدسيُّ ومَن لفَّ لفَّه، أنْ يردُّوا عليه ردًا إسلاميًّا قرآنيًا يُمثِّلُ القرآنَ والإسلامَ، ولا يتعارضُ مع أكثر من نصفِ آيات القرآن، وعلى ألّا يكون هذا الردُّ مستندًا على اجتزاء آيات القرآن من سياقها لتلائم أحقادهم وجهلهم، لأننا باجتزاءِ بعض الأسطر وتوظيفها عند نزعها من روح النص الكلية، يمكننا أن نأتي بوجهة النظر التي نريدها من أيِّ كتابٍ كان، فالاجتزاءُ حسبَ هوى

النفس من أيِّ كتابٍ لا يعبّر عن وجهةِ نظرِ مؤلِّف الكتاب.

كل ما ورد في هذا الكتاب هي آراءُ مستنبطةٌ من القرآن الكريم، وهو كتاب الله المحفوظ الذي لا يعلو عليه شيءٌ، وكلُّ ما خالفهُ لا يعتدُّ به، وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ. لذا أرجو ممن لديه إضافة أو توضيح أو تصحيح أنْ يُبادرَ إلى تنبيهي وتوضيحِ مكامنِ الخللِ، كما أنَّني مستعدٌ لتوضيحِ أيِّ فكرةٍ قد تبدو مبهمةً أو غير مفهومةٍ، وكلُّ رأيٍ مُحترمٌ ومُقدَّرٌ ما دام صاحبه لا يُكفِّرُ الناسَ ولا يقتلهم، والاختلاف أمرٌ طبيعيٌّ، فنحن أناسٌ نخطئُ ونصيبُ، ولذا أمرَ اللهُ قومَ موسى بأنْ يتَّبعوا أحسنَ ما يصلُ إليهم، كما في قوله تعالى: (**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**) ﴿الأعراف: ١٤٥﴾، لأنَّ الاختلافَ طبيعيٌّ، والمعلومات قد تشوبها بعض الشوائب بمرور الزمن وتقادم الأجيال، خصوصًا و نحن نعلمُ أنَّ الإسلام كانَ مستهدفًا من المنافقين وغيرهم، وكلُّ المسلمينَ على اختلافِ مشاربِهم على خيرٍ كثيرٍ ما دامت أيديهم غير ملطخةٍ بالدِّماء وعقولهم بعيدةٌ عن الحقدِ على الآخرين، والله ولي التوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد البياتي

الفهرس

للتواصل مع الكاتب

الاسم: احمد البياتي

البريد الإلكتروني:

thinkerahmed3@gmail.com

الصفحة الرسمية للكاتب على الفيسبوك :

https://www.facebook.com/aalbayati1